أعلام المسلمين

٢٧

القاضي البيضاوي

المفسِّر، الأصوليّ، المتكلِّم، الفقيه، المؤرِّخ، الأديب

صاحب التّصانيف المشْهُورة

الدكتور محمّد الزحيلي

دار القلم

دمشق

أعلام المسلمين

٢٧

القاضي البيضاوي

المفسِّر، الأُصوليّ، المتكلِّم، الفقيه، المؤرِّخ، الأَديب

صاحِبُ التّصانيفِ المشْهُورَة

الدكتور محمّد الزحيلي

دار القلم
دمشق

القاضي البيضاوي

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

هـٰذا الرَّجُل

«هو القاضي، الإمام، العلاّمة، ناصر الدين، عبد الله بن عمر، الشيرازيّ، قاضيها، وعالمها، وعالم أذربيجان وتلك النواحي».

الحافظ ابن كثير

«الشيخ الإمام، العالم، العلاّمة، المحقِّق، المدقّق، ناصر الدين الشيرازي، البيضاوي، صاحب التصانيف البديعة».

العلاّمة الصَّفَدي

«الإمام، أعلم العلماء الأعلام، ذو التصانيف المفيدة المحقَّقة، والمباحث الحميدة المدقَّقة».

اليافعي

«كان إماماً، مبرِّزاً، نظَّاراً، صالحاً، متعبِّداً، زاهداً».

تاج الدين السُّبْكي

«كان إماماً، علاّمة، عارفاً بالفقه والتفسير، والأصلَيْن

والعربية، والمنطق، نظّاراً، صالحاً، متعبِّداً، زاهداً، شافعياً».

الـداوُدي

«صاحب التفسير المعتمد عليه عند علماء الجمهور»، «وأشهر مصنفاته في زماننا هذا تفسيره».

الخوانساري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، الحمد لله الذي هدانا للإيمان، وجعلنا مسلمين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، وعلى التابعين، ومن سلك صراط الله المستقيم.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، ووفقنا لما تحبه وترضاه من القول والفعل والنية، واجعل أعمالنا خالصة لك يا رب العالمين.

وبعـــد:

فقد أنجبت أمتنا الإسلامية خلال تاريخها الطويل نخبةً ممتازةً من أبنائها في جميع مجالات الحياة، ومن هؤلاء الرجال العلماءُ الذين كانوا نجوم الهدى، وأشعة الضياء للبشرية، يحملون النور، ويبثون المعرفة، ويرشدون إلى الخير، ويحذِّرون من مزالق الشرّ، ويبنون صرح الحضارة، ويشيدون أسس المدنية.

ولكن هذه الأمة لم تنجُ ـ في تاريخها ـ من المآسي والويلات، والاعتداء والنكبات، التي أسدلت عليها الليالي السوداء، وعرّضتها لتدمير حضارتها، وهدم دولتها، وطمس معالمها، وحرق كتبها، وقتل أئمتها وعلمائها، وضياع الكثير من ثروتها وتراثها.

واجتمعت هاتان الصورتان في حياة الإمام البيضاوي الذي كان علّامة عصره، وأحد أئمة الدين، وأوعية العلم، لكنه عاصر أعظم نكبة في تاريخ الإسلام والمسلمين، وهي همجية التتار المغول الذين جاؤوا من آسيا، وتوجهوا من شرق الدولة الإسلامية إلى غربها، يفعلون الأعاجيب، ويحرقون الأخضر واليابس، وينشرون الدمار والوحشية، ويحقدون على العلم والعلماء، والتقدم والحضارة، والمدنية والإنسانية، فجاسوا في الأرض فساداً، وأسقطوا الخلافة العباسية، وحرقوا بغداد وغيرها من المدن، ووصلوا إلى الشام، إلى أن توقف زحفهم الجارف في أرض فلسطين بخروج الجيش الإسلامي لهم من مصر، فالتقى بهم، وهزمهم، وحطم غرورهم، وحدّ من اجتياحهم، وردّ كيدهم في نحرهم، وأنقذ البشرية من خطرهم، لكنهم تركوا بصمات الإجرام في كل بلد حلُّوا فيه، أو نزلوا بساحته، ومنها بلاد فارس التي كان البيضاوي يعيش فيها، وذهب التتار ومعهم وصمة العار الأبدية التي لن ينساها التاريخ.

البيضاوي المشهور المغمور:

والبيضاوي: هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو سعيد، وأبو الخير، ناصر الدين، الشيرازي البيضاوي، قاضي القضاة، المتوفى سنة ٦٨٥ هـ.

كان البيضاوي من كبار علماء المسلمين في القرن السابع الهجري، وله شهرة عظيمة على جميع المستويات، وله سمعة ذائعة، وكتب مشهورة، وشخصية لامعة، فهو قاض، وله مواقف مشهودة في القضاء، وهو أصولي، وكتابه في الأصول عمدة العلماء والطلاب، وهو مفسِّر قدير وكتابه في التفسير منتشر بين المسلمين، كما أنه فقيه شافعي لامع، ومؤرِّخ بارز، ونحوي وأديب، ومتكلم ونظَّار، وكَتَب في التوحيد وأصول الدين وعلم الكلام، والمنطق والحديث الشريف، والتهذيب والأخلاق.

ولكن قد يبدو غريباً أن نقول عن البيضاوي: إنه العلامة المشهور المغمور، فما هو السبب في ذلك؟.

إن البيضاوي معروف لدى الجميع، ومشهور على ألسنة الناس، وله شهرة واسعة على المستويين العلمي والشعبي،

واسمه يتردّد على كل لسان، وكتبه نافعة معلومة، ولم يغفل علماء التاريخ ذكره وترجمته وحياته ومصنفاته.

لكن شخصية البيضاوي الكاملة، وتفاصيل حياته، ليست واضحة في الأذهان، سواء عند العلماء أو طلاب العلم، أو عوامّ الناس، ولا يعرف أحد عنها إلا القليل النادر، فما هو السبب؟.

قد يتبادر إلى الذهن بادىء ذي بَدْء أن السبب طول الزمان، والفارق الكبير بيننا وبينه، وأن سبعة قرون ونيِّفاً قد أسدلت الستار على حياته الخاصة، وأزالت الهالة التي أحاطت به، وبدّدت الأنوار التي أضاءت بيته، وإن قصدنا المراجع المختلفة، والمصادر الأصيلة، لنبحث عن الواقع، فسوف نعود بخيبة الأمل، ونفاجىء بالحقيقة المرّة.

ذلك أن كتب التاريخ والتراجم ذكرت اسم البيضاوي، وترجمت لحياته باختصار، وتناولت بعض الجوانب المحدودة، وذكرت جلّ مصنّفاته وكتبه، وأثنت عليه الثناء العاطر، وأشارت أنه من أسرة علم وفضل، ولكنها لم تفصح لنا عن التفاصيل، ولم تكشف لنا الخباء، ولم ترفع لنا الستار، ولم توضِّح الحقيقة الكاملة، ولم ترو التفاصيل التي تشفي الغليل، وتروي الظمآن، وتتناسب مع مكانة القاضي البيضاوي.

فالكلام في مجمله مختصر وقصير، وهو في معظم الأحيان مكرّر ومنقول بشكل شبه حرفي، ولا يزيد في أوسع المصادر عن صفحة، أكثره عن تعداد كتبه، ويبقى الغموض مخيِّماً، والسؤال

مطروحاً عن النقاط التالية:

١ - لم تذكر جميع المصادر ولادته، ونشأته، وتربيته، مع أنها أشارت إلى أنه نشأ في بيت العلم، وأسرة الفضل، وتفقّه بأبيه، وكان والده عالماً، وكذلك كان جده، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه في مقدمة كتابه «الغاية القصوى» فقال: (فاعلم أني أخذت الفقه عن والدي المولى الصدر العالي، وليّ الله الوالي، قدوة الخلف، وبقية السَّلف، إمام الملة والدين، أبي القاسم عمر، عمّر الله تعالى قواعد الدين بأسنّة أقلامه، وأصوبة أحكامه، رحمة الله عليه، وهو عن والده: قاضي القضاة السعيد، فخر الملة والدين، محمد بن الإمام الماضي صدر الدين أبي الحسن عليّ البيضاويّ، عن. . .)(١).

٢ - أغفلت كتب التراجم المدارس التي ارتادها، وأمكنة التعليم التي حصّل منها، وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم، والشيوخ الذين تردّد إليهم، والمحدّثين الذين روى عنهم، مع أن ترجمته المختصرة، وآثاره العلمية تدل على أنه أتقن علوم الإسلام الدينية التي تتوقف على التلقي والسماع والأخذ شفاهاً عن المختصِّين وكبار العلماء، وإلا بقي الطالب منها على الشاطىء، وتجنّب الغوص فيها،

(١) «الغاية القصوى» ١/١٨٤، وانظر: «مرآة الجنان» ٤/٢٢٠.

والسباحة في خضمّها، ليرضى بالمكث على سواحلها، يتنعم بفيئها، ويرضى بالقليل من ذخرها، ويناله الرزاز والرطوبة منها، وهذا ما تجاوزه البيضاوي رحمه الله بالإجماع.

كما أن بلده ـ البيضاء ـ أنجبت عدداً من العلماء، وأن شيراز وتبريز اللتين حلَّ فيهما كانتا تعجّان بالعلماء، وهما من مراكز العلم الشهيرة، وكأن يقصدها الطلاب والعلماء من أرجاء العالم الإسلامي، وكانت موئل الثقافات المختلفة، ومهوى الأفئدة، وملجأ العلماء عند بداية الغزو المغولي للشرق الإسلامي.

٣ ـ أشارت كتب التراجم والتاريخ إلى مكانة البيضاوي في التدريس، وشهرته في التصنيف، وشيوع كتبه بين الناس، وانتشارها في البلدان، ولكنها أغفلت ذكر تلامذته، والطلاب الذين تربوا على يديه، وأخذوا عنه العلم، ونقلوا كتبه ومؤلفاته، ونشروا هذه المصنفات التي سارت بها الركبان، ويستثنى من ذلك ما ذكره العلامة تاج الدين ابن السُّبكي عرضاً عن شخصين تتلمذوا على البيضاوي، وتفقهوا به.

ولذلك وصلت بعد المطالعة والدراسة، والبحث والتنقيب إلى هذه النتيجة التي وضعتها عنواناً، أن البيضاوي مشهور مغمور.

ولكن نسارع إلى تطمين القارىء الكريم إلى أن هذا الجانب المجهول عن القاضي البيضاوي، والجزء المغمور من حياته، لا يؤثر علينا في شيء، ولا يضير هذا الإمام الجليل في شيء، ما دام أن الجانب المشهور، والجزء المضيء، قد وصل كاملاً، والحمد لله، وشاع عرضاً وطولاً، وأضاء الخافِقَيْن، واستفاد من معظمه الناس جميعاً.

ذلك أن ولادة البيضاوي، ونشأته، وتربيته، وتحصيله العلمي، ورحلاته في طلب العلم، لا يفيدنا اليوم إلا من جهة الشغف العلمي، وحبّ المعرفة والاستطلاع، ورسم الصورة الكاملة عن حياته.

وأن إغفال شيوخه، ورحلاته العلمية، والمدارس التي تربى فيها لا يؤثر من قريب ولا من بعيد، ما دام أثرها واضحاً وبارزاً في تكوين هذه الشخصية الفذّة، والعلم الشامخ، والحجة في المعرفة، والبحر في العلوم، وهو البيضاوي.

كما أن السكوت عن تلاميذه وطلابه لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً، ما دام تراثه قد حفظ، وكتبه قد نقلت إلينا في معظمها، وأن المسلمين شرقاً وغرباً، عرباً وعجماً، ينهلون منها طوال القرون السبعة الماضية، وستبقى إلى ما شاء الله، وقد عكف العلماء وطلاب العلم على دراستها، والاستفادة منها، ودارت عليها رَحى العلم عدة قرون، وتناولها المصنفون بالشرح والحواشي، والاختصار والنظم، والتعليق والتقريظ، ونقلتها لنا الأجيال،

لتبقى منارة مضيئة، تهدي السائرين، وترشد السادرين، وتجذب عشاق المعرفة إلى حوضها.

ولكن القسم المجهول من حياة البيضاوي الشخصية، الذي كنّا نتمنى التعرّف عليه، ويعتبر إغفاله خسارة، هو سلوكه الإسلامي، وأخلاقه الرفيعة، وزهده في الحياة، ليكون قدوة لمن بعده في هذا الجانب، ومجالاً للتربية غير المقصودة للأجيال اللاحقة، ليسيروا عليها، ويكونوا خير خلف لخير سلف، وقد اقتصر المؤرخون على وصف البيضاوي بالعبادة، والزهد والورع، والتقوى والصلاح، ولم يذكروا نماذج من ذلك، ولم يقدموا دليلاً عليه إلا في مجال عزله عن القضاء لشدته في الحق، وتخوّفه من المسؤولية والحساب، وتأثره من كلام شيخه الزاهد، كما سنرى.

وقد نقبت في جوانب حياة البيضاوي المكتوبة، وآثاره المنقولة، وأفكاره المسطورة، لأعرف السبب في هذا الغموض عن حياته، وقلت: لعله العداوة بينه وبين خصومه؟ أم هو الحسد ممن دونه؟ أم هو التنافس مع العلماء ومن حوله؟ أم هو الاختلاف في الآراء، أو التطرف في الاجتهاد؟ أم الصدام في الاتجاهات السياسية أو الميول المذهبية؟ أم هو التحامل من الفرق وأعداء الدين؟ ولم أعثر على جواب.

ولعل كارثة القرن السابع الهجري، التي نكب بها العالم أجمع، والحضارة الإنسانية كاملة، وقضت على الخلافة

الإسلامية، وهي سقوط بغداد على يد هولاكو، والغزو المغولي للعالم الإسلامي، وإشاعة الذعر والخوف، والنهب والقتل، والسرقة والاغتصاب، وسفك دم الأبرياء، وإبادة العلم والعلماء، وقطع أوصال الدولة، وحرق المكتبات ـ هو السبب في هذا الغموض الذي حلَّ على القاضي البيضاوي وأمثاله، ممن قدر الله عليهم أن يعيشوا تلك الظروف العصيبة، والنكبات الخطيرة، والمصائب الوبيلة، أعاذنا الله منها، وجنبنا الوقوع في أشراكها.

خطة البحث:

وبعد هذه المقدمة بين يدَي البحث، رأيت أن أقسم الدراسة إلى تمهيد وقسمين وخاتمة.

فالتمهيد: يكشف عن عصر البيضاوي لبيان الحالة السياسية والعلمية في القرن السابع.

والقسم الأول: يبحث عن حياة البيضاوي الشخصية في الإطار الذي وصلنا، وضمن الدائرة التي نُقلت إلينا، ونعرض فيه:

هويته، ونشأته، ومكانته، وتولِّيه القضاء، وشيوخه وتلامذته، ووفاته.

وذلك في توطئة وستة فصول.

والقسم الثاني: يتناول حياة البيضاوي العلمية، فنتعرّف على

شخصيته الحقيقية من خلال الكتب التي صنفها، وليس من كتب التاريخ والتراجم، ولا ممن وصفه، وكتب عنه، ونقل أخباره.

ونبين في هذا القسم مكانة القاضي البيضاوي العلمية، ونعدِّد كتبه، ونحلِّل آثاره، ونتعرّف على:

البيضاوي الفقيه، والبيضاوي الأصولي، والبيضاوي المفسر، والبيضاوي وعلم أصول الدين، والبيضاوي المؤرِّخ، والبيضاوي وعلم النحو، ثم البيضاوي وبقية العلوم.

وذلك في توطئة، وسبعة فصول.

وهذا الجانب في التعرّف على البيضاوي أكثر فائدة، وأدق تصويراً، وأجلى بياناً، وسوف نقتبس بعض النصوص من كتب البيضاوي نفسه للاطلاع على أسلوبه ومنهجه ودقته.

والخاتمة: تتضمن خلاصة البحث ونتائجه.

نسأل الله تعالى أن يسدِّد خطانا، وأن يأخذ بيدنا إلى سبل الرشاد، وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، لندّخرها ليوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين.

دمشق في ٢٣ رمضان ١٤٠٧ هـ ٢١ أيار ١٩٨٧ م

الدكتور محمد الزحيلي
الأستاذ بكلية الشريعة ـ جامعة دمشق

تمهيد :
عن عصر البيضاويّ

يتأثر الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها، ويتفاعل معها، ويتجاوب مع أحداثها سلباً وإيجاباً، وقد يكون تأثيره واضحاً ـ فيما بعد ـ في الأحداث التي تحيط به، ولذلك نعرض نُبذة مختصرة عن عصر الإمام البيضاوي، لإلقاء الضوء على الظروف التي عاشها، وكان لها أثر كبير في حياته الشخصية، وتكوينه الثقافي، وإنتاجه العلمي.

ونقتصر على الناحيتين السياسية والعلمية، لأنهما تكشفان الأضواء عن سبب الغموض في سيرة البيضاوي، وتقدِّمان لنا تفسير بعض الجوانب الخاصة في تولِّيه القضاء، وعزله عنه مرّة، واستقالته منه مرة أخرى، وتسوِّغان ما أسدله التاريخ عن التفاصيل الكاملة للعلماء في تلك الفترة.

الناحية السياسية:

عاش الإمام البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ في القرن السابع الهجري، وهذا القرن يمثل أسوأ عصور التاريخ

الإسلامي القديم من الناحية السياسية، فقد بلغ فيه الضعف - في الداخل - ذروته، وانحلّت العُرَى بين أوصال البلاد الإسلامية، ومنيت بالأحداث الخطيرة، وتفكّكت الصلات بين الحكام والأمراء، وأقامَ الحكام دويلات صغيرة تحت مظلة الخلافة الإسلامية[1].

وبالمقابل تعرّضت الأمة الإسلامية - من الخارج - إلى أشرس الهجمات، وأعتى الأعداء، ليس من الناحية العسكرية، والقوّة المادية فحسب، بل من حيث الهمجية والوحشية التي حرّكت المغول التتار من الشرق، والحقد والضغينة والمكر الذي سيطر على الصليبيين من الغرب، وسقطت الخلافة العباسية بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة في بغداد.

وتمَّ دمار العالم الإسلامي من الشرق على يد التتار المغول بقيادة جنكيز خان أولاً، ثم بقيادة حفيده هولاكو ثانياً[2].

ففي سنة ٦١٦ هـ تحرك جنكيز خَان قائد التتر من أطراف الصين، وعبر نهر جَيْحون، واصطدم مع السلطان خوارزمشاه، وكانت الحرب بينهما سجالاً، ثم انتصر جنكيز خان، واجتاح

---

(١) انظر تعداد الدول الإسلامية عند سقوط الخلافة العباسية في كتاب «تاريخ الأمم الإسلامية» ٣/٤٨٣.

(٢) انظر: «تاريخ الأمم الإسلامية» ٣/٤٨٠، «البداية والنهاية» ١٣/٨٢، ٨٦، ١١٧، ٢٠٠، «الكامل في التاريخ» ١٢/٣٥٨، ٣٦٠، «فوات الوفيات» ١/٢١١.

البلاد، وأهلك العباد، ووضع السيف في الرقاب، واستباح الدماء والأموال والفروج، وخرّب العامر، وقتل الآلاف المؤلَّفة، وبدأت جيوشه تجوب الشرق الإسلامي، وتستولي على المدن واحدة بعد الأخرى، وتدمِّر كل شيء أتت عليه(١).

ولما مات جنكيز خان عام ٦٢٦ هـ تابع أولاده اجتياح الأقاليم الإسلامية، ونهب خيراتها، وإذلال أهلها، إلى أن تولى حفيده هولاكو القيادة عام ٦٥٤ هـ، وسار على نهج جده في القتل والإبادة، وكلما مرّ على مدينة خرّبها، وأذلّ أمراءها وحكامها، وضرب عنق من عصى منهم، وسفك الدماء، وغصب الأموال.

قال ابن السبكي، يصف هولاكو في سيره مع المغول: (يقتلع القلاع، ويملك الحصون، وأطاع الله له البلاد والعباد، وصار لا يصبح يوم إلا سعده في ازدياد، . . . والناس في غفلة عما يراد بهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً).

---

(١) يقول ابن الأثير عند ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام، وكان ذلك في حياته: (لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها. . .، فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟!)، ثم يقول: (هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن، لم يُبتلَوْا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها) «الكامل» ١٢/٣٥٨.

(وصار لا يمرّ بمدينة إلا وصاحبها بين أمرين: إما مطيع فيَقْدِم إلى مخيم هولاكو، فيقبل الأرض، وينعم عليه بما يقتضيه رأيه، ثم يخرب بلاده التي كان فيها، ويصيِّرها قاعاً صفصفاً على قاعدة جده جنكيز خان، ويكون المتولي لخراجها هو ذلك الملك، وإما عاصٍ، وقلّ وجدان ذلك، فلا يعصي عليه غير ساعات معدودة، ثم يحيط به القضاء المقدور، ويحول بين رأسه وعنقه الصارم المشهور...).

(وتوجهت الملوك على اختلاف ندائها، وامتناع سلطانها، وعظم مكانها، إلى عتباته، فمنهم من أمَّنه، وأعطاه فرماناً، ورجعه إلى بلده، ومنهم من فعل به غير ذلك على ما تقتضيه البأساء)[1].

ثم أغار هولاكو على بغداد بالتآمر مع الوزير ابن العلقمي، فاستولى عليها، وقتل الخليفة المستعصم، آخر خلفاء بني العباس، وأنهى الخلافة الإسلامية.

قال ابن السبكي: (ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة ذات الداهية الدَهْياء، والمصيبة الصمّاء...، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء الأماثل، فضربوا أعناقهم...، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة، فتضرب أعناقهم، ثم طلب حاشية الخليفة، فضرب أعناق الجميع، ثم طلب أولاده فضرب

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/٢٦٨ - ٢٦٩.

أعناقهم. . . ، وأما الخليفة فقيل رفسوه حتى مات، وقتلوا أمراءه على آخرهم، وبذلوا السيف ببغداد، واستمر القتل ببغداد بضعاً وثلاثين يوماً، ولم ينج إلا من اختفى).

(وإن هولاكو أمر بعدِّ القتلى، فكانوا ألف ألف وثمانمائة ألف، النصف من ذلك تسعمائة ألف، غير من لم يُعدّ، ومن غرق. . .)[1].

ثم قال ابن السبكي: (وهي الواقعة التي ما سطّر مثلها المؤرخون، والمصيبة التي ما عاينها الأولون، والداهية التي ما خطرت ببال، والكافية التي تكاد ترجف عندها الجبال، أجمع الناس على أن العالم مذ خلق الله تعالى آدم إلى زمانها لم يُبتلَوْا بمثلها، وأن ما فعله بختنصَّر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس يقصر عن فعلها)[2].

ثم قال ابن السبكي: (ملكوا أكثر عامر الأرض، فجعلوه خراباً، وتركوا المساجد والجوامع والمدارس بلاقع، وحرقوا الكتب والمصاحف، وما دخلوا مدينة إلا وسالت أوديتها بدماء أهلها، وكانوا إذا عجزوا عن حمل الأمتعة أطلقوا فيها النيران حتى يذهب أثرها، وكم من أحمال حرير أطلقت فيها النيران،

---

(١) المرجع السابق ٨/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠، وانظر: «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٠٠ وما بعدها.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ١/ ٣٢٩.

ولا وقف لهم أحد إلا وأوسعوا عساكره قتلاً ونهباً وسلباً)[1].

وكان جيش المغول يبني الإصطبل لخيله من الكتب، وألقيت ملايين الكتب في دجلة، وأقاموا بها ثلاثة جسور.

وكان هولاكو يدخل الرعب في القلوب والنفوس قبل وصوله، واتجه نحو حلب ودمشق، وكتب رسالة إلى أهل دمشق، قال فيها:

(ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد، فأيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون، وأيها الغافلون أنتم إليهم تُساقون، ونحن جيوش الهلكة، لا جيوش الملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفرّ؟ ونحن إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب. . . ، دمّرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وأذقناهم العذاب)[2].

وقال ابن كثير: (فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. . . ، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقّة، ولم ينج منهم أحد إلا أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، وبذلوا

---

(١) المرجع السابق ١/ ٣٣٩.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/ ٢٧٦.

عليه أموالاً جزيلة. . .، وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلِّها، كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة. . .، وتعطلت المساجد والجماعات والجُمُعات مدة شهور ببغداد. . .، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون)(١).

وكان الوضع السياسي سيئاً في الشام ومصر، وكانت دولة الأيوبيين في آخر أيامها، ودبّ فيها الضعف والعناء بسبب الحروب الصليبية، وغارات الفرنجة، والاختلاف مع حكام الشام، وسقطت الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨ هـ، وقام على أنقاضها دولة المماليك البحرية.

وفي المغرب كانت دولة الموحِّدين ضعيفة، وكان أهلها يتعاطفون مع مسلمي الأندلس، ويغيثونهم أحياناً إذا استغاثوا بهم.

ولم تكن الأندلس أحسن حظّاً من بلاد الشرق، فكان المسلمون في الأندلس متفرقين، واختلفوا مع بعضهم بسبب الرئاسة والسلطة، فطمع فيهم الأسبان، واتجهوا إلى حربهم واحتلال بلادهم، واستولى الأسبان في القرن السابع الهجري على أكثر المدن الشهيرة والحصون المنيعة، ولم يبق للمسلمين في الأندلس إلا غرناطة وضواحيها(٢).

---

(١) «البداية والنهاية» ٣/٢٠١، ٢٠٣.

(٢) انظر: «الفتح المبين» ٢/٤٢ وما بعدها.

ومن جهة أخرى تحرك الصليبيون في القرن السابع انتقاماً لهزيمتهم أمام صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ، وأرادوا الثأر من المسلمين، واحتلال الديار المقدسة، فتوجهوا إلى مصر، ونزل جيشهم قرب دمياط، واحتلُّوها بعد قتال وحصار، وقتلوا أكثر أهلها عام ٦١٥ هـ، ثم هزمهم المسلمون، فأعادوا الكرّة، واستخدموا المكر والحيلة، واستلموا القدس عام ٦٢٦ هـ، وقلعة صفد عام ٦٢٨ هـ، واتجهوا ثانية إلى دمياط عام ٦٤٧ هـ فانهزموا ورُدّوا على أعقابهم[١].

ولم يدم هذا الواقع الأليم طويلاً، وثارت حمية المسلمين، وتكاتفوا في تطهير أوطانهم، وحماية أهلهم، ودحروا الصليبيين، ثم اتجه الجيش الإسلامي من مصر بقيادة الملك المظفر قطز، وحقق الله على يديه النصر لأول مرة على التتار بعين جالوت في العشر الأخير من رمضان سنة ٦٥٨ هـ، بعد أن فعلوا بالشام ما فعلوا، ونهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزّة، وعزموا على دخول مصر، فردَّ الله كيدهم في نحرهم، وأخذوا بالتراجع والتقهقر، وأرسل المظفر قطز قائده بيبرس، وراء التتر إلى حلب فطردهم، وطهر المسلمون البلاد أيضاً من الصليبيين، وارتاح المسلمون من الوحشين الكاسرين، ثم كانت المفاجأة المذهلة بدخول

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» ١٣/ ٧٥ وما بعدها، «حسن المحاضرة» ٢/ ٢٣، ٣٥، ٣٩.

التتار في الإسلام، فاتجهوا إلى تعلم الدين واللغة العربية والمشاركة في تشجيع العلم وإعمار المساجد وبناء المدارس والمكتبات[1]، وهذا ينقلنا إلى بحث الناحية العلمية.

الناحيــة العلميــة:

كانت الأحداث السياسية والكوارث الخارجية التي حلت بالبلاد الإسلامية ذات تأثير مباشر على الحركة العلميـة، والنهضة الثقافيـة، سلباً وإيجـاباً، فـركدت سـوق العلم، وقصرت الهمم، وجمد الاجتهاد، وساد التقليد.

وكان للفساد الاجتماعي، والانحلال الخلقي بين الناس، أثـر على العلم والعلماء، الـذين آثر كثيـر منهم اعتـزال المجتمع، والانقطاع إلى العلم والعبـادة والانكباب على الدراسة والبحث، والابتعاد عن الحكام والأمراء أحياناً، بينما كان فريق آخر يقف في وجه الانحراف، ويسعى إلى تقويم السلوك، وإصلاح المجتمع، ويقوم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويتصدى لتصرفات الحكّام والأمراء، ويتعرّض أحياناً لبطشهم أو الانتقام منهم، وقد يضطر بعضهم لإعلان العصيان، أو التهديد بالهجرة، لإعلان النقمة، وتحريـك الجماهير، كما فعل العز بن عبد السلام وغيره.

وشهد القرن السابع أعظم النكبات التي حلّت بالثروة

---

(١) انظر: «الغاية القصوى» المقدمة ١/ ٢٩ وما بعدها.

العلمية الضخمة، والتراث الخالد الذي خلّفته الأجيال السابقة، نتيجة الفتن الداخلية، والغَزوات الخارجية، والحروب الوحشية، والثورات والمجاعات، والحرائق والسرقات، والجهل والطمع.

كما كانت الاضطرابات الداخلية والحروب الخارجية تدفع كثيراً من العلماء إلى الهجرة من بلدهم إلى مكان آخر يأمنون فيه على دينهم وعلمهم، ويمارسون فيه نشاطهم ودروسهم، ويركنون فيه إلى البحث والتأليف.

وكان من نتيجة الفتنة والحروب والاحتلال الأجنبي وسقوط الخلافة العباسية، قَتْلُ عدد كبير من العلماء، وحَرْقُ الكتب والمكتبات، ولم يسلم من الغزو المغولي في الشرق إلا مصر التي دُحر التتار على أبوابها، وجنوب إيران في ولايتي فارس وكرمان اللتين تصالحتا مع التتر، ودفع الأمراء فيها الأتاوات لهم، واستطاع أمير فارس أبو بكر بن سعد بن زنكي أن يدفع شرّ المغول عن بلده، وأن يوفر لها الأمان، فهاجر إليه عدد من العلماء.

ولمع في هذا الظلام الدامس عدد من نجوم الهدى، وأئمة الدين، في مختلف العلوم الشرعية، والعقلية والكونية، وبرز عدد من العلماء الذين جمعوا بين مختلف الفنون كالفقه وأصول الدين، والتفسير والحديث، والحكمة والمنطق، والنحو والصرف، والأدب والنحو وعلوم العربية، والتاريخ

والهيئة، والطب والفلسفة، نذكر بعضهم تعداداً.

منهم فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ)، والمبارك بن الأثير الجزري (٦٠٦ هـ)، وموفق الدين بن قدامة (٦٢٠ هـ)، والتبريزي (٦٢١ هـ)، وعبد الكريم الرافعي (٦٢٣ هـ)، وعز الدين علي بن الأثير الجزري (٦٣٠ هـ)، والآمدي (٦٣١ هـ)، والسهروردي (٦٣٢ هـ)، ونصر الله بن الأثير الجزري (٦٣٧ هـ)، ومحيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ)، وابن أبي الدم الحموي القاضي (٦٤٢ هـ)، وابن الصلاح (٦٤٣ هـ)، والحافظ ابن النجار (٦٤٣ هـ)، وابن الحاجب الأصولي النحوي الفقيه المالكي (٦٤٦ هـ)، ومجد الدين بن تيمية (٦٥٢ هـ)، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، ومحيي الدين النووي (٦٧٦ هـ)، وابن مالك النحوي (٦٧٢ هـ)، وابن خَلِّكان (٦٨٤ هـ)، والقاضي البيضاوي (٦٨٥ هـ)، وابن النفيس (٦٨٧ هـ)، وشمس الدين الأصفهاني (٦٨٨ هـ)، وعبد الرحمن الفزاري المعروف بالفركاح (٦٩٠ هـ)، وابن الساعاتي (٦٩٤ هـ).

وكانت في هذه الأثناء نهضة علمية في الأندلس وغيرها، وأقبل كثير من الحكام على العلم، وتشجيع العلماء، وبناء المساجد، والتنافس في بناء المدارس الشهيرة التي كانت بمثابة جامعة، كالمستنصرية التي بنيت سنة ٦٣١ هـ في بغداد، والكاملية بالقاهرة سنة ٦٢١ هـ، والصالحية بمصر

(٦٣٩ هـ)، والظاهرية بدمشق (٦٦١ هـ)، والمنصورية بالقاهرة (٦٧٩ هـ)؛ بالإضافة إلى المدارس القديمة في مصر وفارس وبغداد ودمشق، والمدارس الخاصة، والمعاهد الكثيرة.

وتحرك علماء القرن السابع بالتفاعل مع التراث الذي وصلهم، والثروة التي ورثوها، وما بقي من المكتبات بعد التدمير والحرق، وقاموا بنشاط واسع، فاختصروا المطوَّلات، وشرحوا المتون والمختصرات، ومزجوا بين العلوم المتقاربة كالمنطق والفقه وأصول الفقه، وعلوم العربية مع علم التفسير، وصنفوا المطوَّلات والموسوعات في الحديث والتاريخ واللغة، ونظموا كثيراً من العلوم.

وقام العلماء أيضاً بواجبهم في التدريس، وعكفوا على التأليف والتصنيف، مما يدل على نشاط الحركة الثقافية، والتآليف المتخصصة، والمناقشات العلمية، وتميز هذا العصر بالتوسع في المعاجم، لكثرة المعارف المتوفرة، وتنوع الفنون، ووفرة الكتب، واتصال العلماء بعضهم ببعض[1].

في هذا الجو العام السياسي والعلمي ولد القاضي البيضاوي، ونشأ وترعرع، واكتسب معارفه، ودرّس وناظر، وصنّف وألّف.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» ١٣/١٣٩، «حسن المحاضرة» ٢/٢٥٥ وما بعدها، «الفتح المبين» ٢/٤٦، «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٤٢.

القسم الأول
حَيَاة البَيْضَاويّ الشّخصِيَّة

توطئــة:

إن الأمم الحية تفخر بماضيها وتاريخها، لأن الحاضر امتداد للماضي، والمستقبل امتداد للحاضر، والبشرية تسير في حلقات متتابعة من قديمها إلى حديثها، ثم إلى غدها، والسابق يقدِّم للاحـق، والكل يشارك في البناء، ليتم الصرح الإنساني، ويزيد النتاج البشري.

وإن دراسة التاريخ تعين على كشف الحقائق، ونسبـة الآراء إلى أصحابها، وتحديد ذوي الاكتشاف، وإعادة الفضل إلى أهله، ومعـرفة المبـدع من الحاكي، والمختـرع من المقلِّد، والمجـدِّد من المصوِّر، وهـذا ما يـوجبه الخُلُق الكريم، من الاعتراف بالفضل لأهله.

وقد امتازت الأمة العربية والإسلاميـة بحفظ تاريخهـا، وترجمة أعلامها، وظهرت في الثقافة العربية الإسلامية كتب التراجم والأعلام في مختلف العلوم والفنون، كما ظهرت الموسوعات الطويلة في تاريخ الأمم والشعوب.

وإن من مظاهر الحياة في الأمة أن تثير الهمة نحو تاريخها، وتجدِّد الصفحات المشرقة فيه، وتَذْكُرَ الأعلام والأبطال والمفكرين والمصلحين والأئمة الذين كان لهم شأن في الحياة، وتأثير في المجتمع، وإذكاء للفكر، وتنوير للعقل.

ومن هنا برزت فكرة سلسلة الأعلام، وكتابة التراجمات لهم، لإحياء ذكراهم، والاحتفاء بهم في الاحتفالات، وتجديد العهد بهم، والإشادة بأعمالهم، وتخليد أمجادهم على صفحات الزمن، وفي قلوب الأجيال، ليختطّ الأبناء طريق الآباء، ويكون الخلف مستنيراً بضياء السلف، وتتصل حلقة العطاء بين الأجيال والدهور، فيعمّ الخير، ويستمرّ النور.

وعلى ضوء هذه المعطيات والقيم نرجع إلى التاريخ وبطون الكتب لنستقرىء صفحاتها، ونستجلي النور من سطورها، ونتعرّف على حياة البيضاوي الشخصية، في هويته ونشأته، ومكانته، وتولّيه القضاء، وشيوخه وتلامذته، ووفاته. وذلك في ستة فصول.

الفصل الأوّل
هويّة البيضاويّ

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي، القاضي المفتي، العالم بالفقه وأصول الفقه، والتفسير وأصول الدين، والحديث والمنطق، والعربية والنحو، والتاريخ والهيئة.

ولد بالبيضاء، وتولى القضاء بشيراز، وارتحل إلى تِبريز لنشر العلوم والمعارف، ومات سنة ٦٨٥ هـ، ودفن بتِبريز.

هذه هي هوية القاضي البيضاوي بالاختصار، على القول الراجح، أما التفاصيل فقد اتفق علماء التراجم والتاريخ على معظمها، واختلفوا في بعضها، وضاع قسط كبير منها، وهذا هو البيان.

اسمه ونسبه:

اسمه: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، باتفاق المصادر.

ونسبه: هو البيضاوي، الشيرازي، الفارسي، الشافعي.

والبيضاوي نسبة إلى البيضاء من بلاد فارس، وهي مدينة كبيرة من أعمال شيراز، وأكبر مدينة بإصطخر، وينتسب إليها جماعة من العلماء، وهذه النسبة للبيضاء أشهر النسب، وبها يعرف[1].

والشيرازي نسبة إلى شيراز، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس، ونسب البيضاوي إليها لأن البيضاء تابعة لها، ولأنه تولى قضاء شيراز مدة[2].

والفارسي نسبة إلى بلاد فارس التي ولد فيها، ونشأ في ربوعها، وتربى في أحضانها، وتعلم لغتها، وكتب فيها، وألف بعض كتبه باللغة الفارسية، ويعتبر البيضاوي من أعلام الأدب الفارسي[3].

والشافعي نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس

---

(١) البيضاء اسم مكان عربي متواتر، يطلق على أماكن متعددة ومتفرقة في أرجاء العالم الإسلامي، وأهمها بلدة البيضاء الفارسية القائمة في ولاية فارس، شمالي شيراز، وغربي إصطخر، وكان اسمها الأصلي نَسا. (انظر: «الأنساب للسمعاني» ٢/٣٦٨، «مراصد الاطلاع» ١/٢٤٢، «دائرة المعارف الإسلامية» ٣١/٩٠ ط. الشعب).

(٢) انظر: «مراصد الاطِّلاع» ٢/٨٢٤، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٣.

(٣) انظر: «تاريخ الأدب الفارسي» زاده شفق ص ١٩٨ عن «معجم المؤلفين» ٦/٩٧، «التعريف بالمؤرخين» ١/١١٦.

الشافعي في الفقه الإسلامي، وينسب البيضاوي إليه لأنه تفقه على هذا المذهب، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف بعض الكتب الفقهية القيمة في المذهب الشافعي، وقدم فيه خدمات جُلّى.

ويُعرف البيضاوي بالقاضي، وقاضي القضاة، لأنه تولى هذين المنصبين فترة من الزمن.

وهنا نقف قليلاً عند نسب البيضاوي، ووصفه بأنه فارسي، فنرى أن القاضي البيضاوي قد تعلم اللغة العربية، وأتقنها، وبزَّ فيها أقرانه، وتفوق فيها، وملك ناصية البيان والفصاحة والبلاغة فيها، وعرف أسرارها، ومعانيها، وتبحر في تراكيبها ومفرداتها، وعرف استعمالاتها، وغاص في مختلف فنونها.

وإن كتب التاريخ والتراجم قد ضنَّت علينا بأصله ونسبه وتعلمه للعربية، ولكن آثار البيضاوي التي وصلتنا تدل على ذلك بأفصح لسان، وأجلى بيان، فقد فسر البيضاوي القرآن الكريم، وظهرت في تفسيره الحكم البلاغية، والإشارات اللغوية، والنكات البيانية، والفهم الدقيق، والمعنى العميق لكلام الله تعالى، مع الدقة في التعبير، والاختصار في الأسلوب، وحسن الأداء، وسبك العبارة، كما صنف البيضاوي جميع كتبه تقريباً باللغة العربية بأسلوب مشرق، وعبار ممتازة، وبيان محكم، ودرّس وناظر باللغة العربية،

وفوق كل ذلك ألّف وصنّف في أدق علوم العربية، وهو علم النحو.

وإن وُصف البيضاوي بأنه فارسي، فقد يكون ذلك صحيحاً من جهة النسب والدم، ولكنه كان عربي اللسان، عربي القلب، عربي الروح، عربي الثقافة، عربي البيان، عربي العقيدة، ذلك أن العربية لغة القرآن، ولسان رسول الله ﷺ، ولغة العلم، ولغة المجتمع والدولة.

ولذلك نعتبر أن البيضاوي خدم اللغة العربية، وله فضل كبير عليها، لكنه لم ينسب هذا الفضل لنفسه، ولم ينسبه له أحد، لأن الفضل الأكبر هو للدين والإسلام الذي نشر العربية، وصبغ بها المجتمع المسلم خارج البلاد العربية، وكان اعتناق الإسلام، وحب الرسول ﷺ، والصدق في الإيمان، والعزيمة في الدين دافعاً للمسلم أن يتعلم العربية، وباعثاً له للنطق بها، وبذل الجهد في خدمتها، واعتبارها وسيلة العلم والتعلم.

ولا نستبعد أن يكون البيضاوي عربي الدم والنسب، لأن العرب خرجوا من بلادهم، واستقروا في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية، واختلطوا بالشعوب الأخرى، وكانت القبائل العربية تترك الجزيرة العربية، وتهاجر إلى البلاد المختلفة، وتقيم في فارس والسند وما وراء النهر، كما خرج العديد من العرب، وهم يحملون لواء الدعوة الإسلامية إلى

شعوب الأرض، وانخرط كثير منهم في صفوف الجهاد والفتح الإسلامي، كما كان العلماء يجوبون الأقطار الإسلامية، وينتقلون من قطر إلى آخر، ويستقرون حيثما طاب لهم المقام.

هذا الاحتمال، وإن كان وارداً، لا يغيّر من حقيقة البيضاوي وهويته، كما لا يغيّر من سمات الشخصيات الإسلامية العديدة، لأن العبرة بالعمل والإنتاج، وليس بالدم والنسب، فالمرء بما يحسن وينتج، وهذا ما أكّده القرآن الكريم ودعا إليه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنَّا خَلَقْناكم من ذكر وأنثى، وجَعَلْناكم شُعُوباً وقَبائلَ لتعارَفُوا، إنَّ أكرمَكُمْ عندَ اللهِ أتقاكم، إنَّ اللهَ عليمٌ خبير﴾ [الحجرات/١٣]، وأكد ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، ألا إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لَيَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعلان التي تدفع بأنفها النتن»[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/٤١١).

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً. (مسند =

والواقع أن المسلمين من غير العرب قدّموا خدمات جُلّى للإسلام واللغة العربية، وأن إنتاجهم يفوق ما قدمه العرب، والتاريخ خير شاهد على ذلك، وآثارهم تدل عليهم، والله لا يضيع أجر عمل عامل، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.

كنيتــه ولقبــه:

اختلفت المصادر في كنية البيضاوي، فذهب فريق إلى أن كنيته أبو الخير[1]، وذهب فريق آخر إلى أن كنيته أبو سعيد[2]، وجمع فريق ثالث بين الكنيتين، فقال: أبو الخير وأبو سعيد، أو أبو الخير أو أبو سعيد[3].

والغالب أن كنيته أبو سعيد، وأن أبا الخير أطلق عليه لقباً

= أحمد ٢/٣٦١، ٥٢٤، سنن أبي داود ٢/٦٢٤، تحفة الأحوذي ١٠/٤٥٥).

(١) انظر: «بغية الوعاة» ١/٥٠، «نزهة الجليس» ٢/٨٧، «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢، «روضات الجنات» ص ٤٥٤، «الفتح المبين» ٢/٨٨، «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٣، «معجم المؤلفين» ٦/٩٧، «كشف الظنون» ١/١٦٢، «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣.

(٢) انظر: «هدية العارفين» ١/٤٦٣، «معجم المؤلفين» ٦/٩٧، «كشف الظنون» ١/١٦٢.

(٣) انظر: «الأعلام» ٤/٢٤٨، «نهاية السول» ١/ج، «حاشية الخفاجي» ١/٤.

للمدح والثناء، وهو عادة السلف من العلماء في العصر العباسي وما بعده.

ولم يثبت مرجع واحد في ترجمة البيضاوي أولاده، وهل كان له أولاد أم لا؟ وما هي أسماؤهم؟ ولم تذكر كتب التراجم شيئاً عن حياته الزوجية والعائلية.

أما لقبه فهو ناصر الدين باتفاق المصادر، ووصف بذلك لتآليفه النافعة، التي انتصر فيها للحق والدين، لوقوفه على الحق في القضاء، وعدم مجاراة الحكام، مع الالتزام بالأحكام الشرعية في الحكم، وقد نصر الله على يديه، ومن خلال كتبه شؤون الدين، وأعلى بها كلمة الحق، وآراء أهل السنة والجماعة.

ويلقب البيضاوي أيضاً بالقاضي، وهذا وصف له لتولِّيه منصب القضاء في البيضاء، وفي شيراز، كما ذكرت بعض المصادر لقباً آخر له، وهو قاضي القضاة، وهذا منصب جليل، له دلالة معيَّنة، وقد وُصف به لتعيينه قاضياً للقضاة فترة في شِيراز[1].

---

(١) انظر: «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢، «مرآة الجنان» ٤/٢٢٠، «بغية الوعاة» ١/٥٠، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٤، «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٨، «روضات الجنات» ص ٤٥٤، «نزهة الجليس» ٢/٨٧، «الدليل الشافي على المنهل الصافي» ١/٣٨٨.

الفصل الثاني

ولادة البيضاوي ونشأته

ولد البيضاوي في مدينة البيضاء باتفاق، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته، كما أغفلت جميع المصادر التي اطلعت عليها سنّه عند الوفاة، مما يستحيل علينا تقدير ولادته، لكن يفهم من كتب التراجم أن البيضاوي رحمه الله كان من المعمَّرين، وعاش طويلاً، وانفرد ابن حبيب بقوله: (كانت وفاته ـ أي البيضاوي ـ بمحلة تِبريز عن مائة)[1]، ثم ذكر ابن حبيب أن وفاته كانت سنة ٦٨٥ هـ، فعلى هذا تكون ولادة البيضاوي سنة ٥٨٥ هـ، أو قبل مطلع القرن السابع الهجري، ولا نستطيع الجزم بذلك، لأن أحداً من المؤرخين المعاصرين لابن حبيب أو السابقين له، لم يذكر شيئاً من ذلك، بل اختلفوا كثيراً في تاريخ وفاة البيضاوي كما سنبيّن ذلك.

(١) «درة الأسلاك في دولة الأتراك»، للعالم بدر الدين أبي الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ، مايكروفيلم معهد المخطوطات عن مخطوطة أحمد الثالث تحت رقم ٢٣٥، لوحة ١/ ٥٧، عن «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/ ٥٤.

أما نشأة البيضاوي فيظهر أنه نشأ في البيضاء، وتربى فيها على يد والده، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء، وقد اقتصرت كتب التراجم على أنه تفقه بوالده، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه، كما سبق.

قال اليافعي: (تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلّامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادي، الشافعي، وتفقه مجير الدين بالإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى)[1].

ويحتمل أن يكون البيضاوي قد رحل إلى شِيراز وتِبريز وسائر بلاد فارس يطلب العلم، ويكتسب المعارف، ويحصِّل الحكمة، ويجمع الثقافة الإسلامية، وليس لدينا دليل أو مصدر على ذلك إلا نتاج البيضاوي ومعارفه وثقافته واختلاف العلوم التي صنف فيها، مما يدل على سعيه ورحلاته لتحصيلها والتفوّق فيها، وقد ملك زمام العلوم العربية والشرعية والعقلية.

والدليل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه هو ما ورد في ترجمة والده بأنه انتقل إلى شِيراز، وكان مقرَّباً للأتابك أبي بكر بن سعد بن زنكي الذي حكم فارس سنة (٦٢٣ ـ ٦٥٨ هـ)، وعين الوالد قاضي القضاة[2]، فاستقر في شيراز،

(١) «مرآة الجنان» ٤/ ٢٢٠.

(٢) «دائرة المعارف الإسلامية» ٩/ ٣٢ ط. الشعب.

والغالب أن يكون الوالد قد صحب ابنه معه إلى شِيراز، وتربى فيها، وتعلم في مدارسها، وأخذ على يد العلماء والفقهاء والأدباء الذين لجؤوا إليها، لتوفير الأمن والأمان فيها، بعد أن صالح الأتابك أبو بكر التتار ودفع لهم الهدايا والأتاوات.

كما ثبت في ترجمة البيضاوي أنه رحل إلى تبريز والتقى بالشيخ محمد الكتحتائي، ويظهر أن هذه الرحلة كانت بعد أن تولى القضاء بشيراز، كما ثبت أن البيضاوي استقر بعد ذلك في تِبريز ومات فيها، كما سنرى.

ويظهر من حياة البيضاوي أنه كان ممثلاً لحال عصره، فجمع عناصر الثقافة الإسلامية التي تجمعت حصيلتها من القرون الستة السابقة، وسادت في خضم الحياة، وضمت العلوم الدينية وعلوم العربية وعلوم الفلسفة والحكمة، كأصول الدين وأصول الفقه، والتفسير والحديث، والفقه والخلاف، والأدب والنحو والصرف، والحكمة والمنطق، والتاريخ والهيئة وغيرها.

كما تدل كتب التراجم على أن البيضاوي كان من بيت علم ودين، فكان والده فقيهاً عالماً، وكان مقرَّباً للأتابك أبي بكر بن سعد حاكم شيراز، الذي عينه قاضي القضاة، وصرح البيضاوي نفسه بذلك فقال: (أخذت الفقه عن والدي، مولى الموالي، الصدر العالي، وليّ الله الوالي،

قدوة الخلف وبقية السلف، إمام الملة والدين أبي القاسم عمر)[1].

كما أن جد البيضاوي محمداً كان قاضياً للقضاة، وهو ما ذكره البيضاوي، فقال: (قاضي القضاة السعيد، فخر الدين محمد)[2]، وذكر البيضاوي أن لجده كتاباً في العقيدة، فقال: (أودع جدِّي ـ قدس الله روحه ـ ما صح عنده منها في كتاب العقيدة)[3].

وكان علي والد جدّ البيضاوي من العلماء، ووصفه البيضاوي، بأنه (الإمام الماضي، صدر الدين أبي الحسن)[4].

ولم تذكر كتب التراجم والرجال ـ التي بين أيدينا ـ ترجمة لوالده أو جدّه، إلا ما جاء ضمناً في مقدمة القاضي البيضاوي لكتابه «الغاية القصوى»، ونقلنا النص منها.

---

(١) «الغاية القصوى» ١/١٨٤، وانظر: «دائرة المعارف الإسلامية» ٣٢/٩ ط. الشعب.
(٢) «الغاية القصوى» ١/١٨٤.
(٣) «الغاية القصوى» ١/٣٥٥.
(٤) «الغاية القصوى» ١/١٨٤.

الفصل الثالث

شيوخ البيضاوي وتلامذته

قضى البيضاوي معظم حياته في شيراز المشهورة بالعلم، وأخذ العلوم المختلفة عن كبار العلماء فيها، وكانت شيراز تنعم بالأمن والسلام، واستطاع الأتابك أبو بكر بن سعد أن يصونها من الخراب والدمار، وكان يشجع العلم والعلماء، فالتجأ إليه كثير من علماء البلاد الأخرى التي دنّسها المغول، وشرّدوا أهلها، وأقام البيضاوي بشيراز مع والده، ثم عُيِّن قاضياً فيها، ثم قاضياً للقضاة، ولم يرحل عنها إلا إلى تبريز برهة، ثم استقر في تبريز في آخر حياته، وقضى نحبه فيها، واستفاد البيضاوي من وجود العلماء في شيراز، فأخذ عنهم.

لكن كتب التراجم والتاريخ لم تحفظ لنا أسماء العلماء والشيوخ الذين أخذ عنهم، وسكتت عن رحلاته في طلب العلم، ولم يصل إلينا إلا ما صرح به البيضاوي نفسه من تفقهه على والده عمر بن محمد بن علي البيضاوي الذي كان قاضي الممالك عند الدولة السلغرية في بلاد فارس(١).

(١) انظر: «مرآة الجنان» ٤/ ٢٢٠، «التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان» ص ١١٦.

وأشارت بعض المراجع إلى أن القاضي البيضاوي كان متأثراً بالشيخ محمد بن محمد الكتحتائي، الذي ساعده في تولي القضاء ـ في قول ـ وتأثر البيضاوي بأقواله، ولازمه في آخر حياته، وصفت نفسه وروحه معه، وتأثر بزهده وورعه، وبقي معه في تبريز حتى مات الشيخ، وأن البيضاوي صنف كتابه التفسير بإشارة شيخه[١].

ولم تذكر كتب التراجم شيئاً عن حياة محمد الكتحتائي إلا أنه كان مقرَّباً للسلطان المغولي أحمد آغا بن هولاكو الذي أسلم، وحسن إسلامه، وكان يأتي الشيخ محمد الكتحتائي في الليالي المباركة بقصد الزيارة والاستفادة وذكر الله تعالى عنده، وقد طلب البيضاوي من شيخه التوسط عند السلطان لتولية القضاء ففعل[٢]، كما سنرى.

ولا شك أن الإنسان لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، وكثيراً ما يتأثر الإنسان بوالديه، وأساتذته ومشايخه، وقد يكون ثمرة من غراسهم، ونبتةً من بذورهم، وصورة صادقة عن سعيهم، ولذلك يتحمل الآباء مسؤولية تربية الأولاد، وندب الشرع والعقل إلى اختيار المربِّين،

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ١/١٦٢، وقد تكون هذه الرواية بعيدة، لأن الغالب أن البيضاوي صنف كتابه التفسير قبل قدومه إلى تبريز وتعرّفه بالشيخ الكتحتائي، كما سنرى عند الكلام عن التفسير.

(٢) «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٦٢.

وانتقاء المؤدِّبين، والجلوس بين يدي العلماء، للتوجيه والتعليم.

ولكن الظروف السياسية التي أحاطت بعصر البيضاوي، وغطّت كثيراً من تفاصيل الأحداث في القرن السابع كانت السبب الرئيس في الغموض، وحجبت عنا شيوخ البيضاوي.

وكما أن الإنسان يتأثر بأساتذته وشيوخه ووالديه، فإنه يؤثر في أولاده وطلابه وتلامذته، ليكونوا امتداداً علمياً له، ونقلة لآرائه وعلمه، ووسيلة لنشر كتبه ومصنفاته.

ولم يكن حظ البيضاوي في معرفة تلامذته أحسن حالاً من معرفة شيوخه، فلم يذكر المؤرخون أحداً من تلامذة البيضاوي إلا ما جاء في ثنايا الكتب وأسماء المؤلفين، ومن شرح كتب البيضاوي في حياته، مع أن الإمام البيضاوي قضى معظم حياته في التأليف والتدريس، ولا شك أن عدداً كبيراً من الطلاب جلس في حلقته، ونهل من علمه، واستفاد من ثقافته، وقرأ عليه كتبه ومصنفاته.

ونتيجة التتبع، والبحث في الفهارس والمراجع، استطعنا أن نعرف أربعة تلاميذ للبيضاوي، وهم:

١ ـ أحمد بن الحسن، الشيخ فخر الدين، الإمام الجارَبَرْدِيُّ، العالم الفاضل، الدَّيِّن الوقور، الذي كان

مواظباً على العلم وإفادة الطلبة، أخذ عن القاضي البيضاوي، وله شرح «المنهاج» في أصول الفقه، و«شرح الحاوي الصغير» في الفقه، و«شرح الشافية لابن الحاجب» في النحو، و«حاشية على الكشاف» في التفسير، مات في رمضان سنة ٧٤٦ هـ بتبريز، قال ابن السبكي: (بلغنا أنه اجتمع بالقاضي ناصر الدين البيضاوي، وأخذ عنه)(١).

٢ ـ الشيخ زين الدين الهنكي، تلميذ البيضاوي، الذي صار شيخاً لعضد الدين الإيجي، صاحب التصانيف المشهورة، وقال طاش كبرى زادة: «الهَنْكي»(٢).

٣ ـ الشيخ كمال الدين المراغي، وهو عمر بن إلياس بن يونس، أبو القاسم، الصوفي، كمال الدين المراغي، الذي ولد بأذربيجان سنة ٦٤٣ هـ، وسمع على القاضي ناصر الدين البيضاوي كتبه: «المنهاج»، و«الغاية القصوى»، و«الطوالع»؛ ولم يذكر ابن حجر وفاته، لكنه نقل أن المراغي قدم دمشق سنة ٧٢٩ هـ، وله نيف

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/٨، وانظر ترجمته في («مفتاح السعادة» ١/١٤٢، «البدر الطالع» ١/٤٧، «الدرر الكامنة» ١/١٣٢، «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/٣٩٤).

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» ١٠/٤٦، «مفتاح السعادة» ١/٢١١، «البدر الطالع» ١/٣٢٦، «الدرر الكامنة» ٢/٤٢٩.

وثمانون سنة، وأخذ عنه الذهبي والبدر النابلسي الحنبلي[1].

٤ ـ الشيخ عبد الرحمن الأصبهاني، وهو العلامة عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني، الذي قرأ على البيضاوي كتابه «الغاية القصوى»، وهو والد الإمام شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، الذي قرأ «الغاية القصوى» على والده عبد الرحمن، ثم قام بشرح كتب البيضاوي «الطوالع» و «المنهاج»[2].

وإننا لنقطع ونجزم أن تلاميذ البيضاوي كثر، وأنهم كانوا نابغين ومتأثرين به، بدليل أنهم تلقَّوْا كتبه عنه، ثم نقلوها، وأشاعوها في الأقطار الإسلامية.

وكان البيضاوي مشهوراً، ويقصده الطلاب بكثرة، وإن كتبه قد انتشرت في الآفاق، وتناولها العلماء في حياته بالقبول والدراسة والشرح، كما كانت شيراز وتبريز من مراكز العلم التي يتجه إليها عشّاق المعرفة، والطلاب والعلماء، ولا شك أنهم كانوا يلتقون بالبيضاوي، وينهلون من علمه.

---

(١) انظر: «الدرر الكامنة» ٣/٢٣٢، «روضات الجنات» ص ٤٥٥.

(٢) انظر: «الدرر الكامنة» ٥/٩٥، «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٦٧ والمراجع المشار إليها في الهامش.

الفصل الرابع

البيضاوي قاضياً

القضاء فريضة محكمة، ومنصب جليل، ومركز مرموق، به تُحفظ الحقوق، وتُحقن الدماء، وتُصان الأعراض، وتُزال الخصومات، ويُطبّق الشرع، ويُقام العدل، وتُنفذ الأحكام الشرعية، كما يريدها ربُّ العزة، ولذلك تولّاه رسول الله ﷺ، وعيَّن بعض الصحابة قضاة في مختلف المدن والأمصار، وتولّاه الخلفاء الراشدون، وكبار الأئمة والعلماء، تقرّباً إلى الله تعالى، وحباً في مرضاته، وحرصاً على تنفيذ أوامره.

روى البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (لأن أجلس قاضياً بين الناس بحق واجب، أحبُّ إليّ من عبادة سبعين سنة)[1].

وروى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه

---

(١) «السنن الكبرى» ١٠/٨٩.

يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم، وما وُلُّوا»(١).

وصان القضاة المسلمون هذا المنصب، وقاموا به حق القيام في معظم الأحيان، لما ورد فيه من الترغيب، والحث عليه، حتى صار قضاة الإسلام مَضْرِبَ المثل في النزاهة والعدل والاستقامة، وصارت ولاية القضاء غالباً مَنْقَبة ومدحاً وثناءً وفخراً.

تولي البيضاوي القضاء:

أجمعت كتب الرجال التي ترجمت للإمام البيضاوي بنعته بالقاضي، حتى اشتهر بذلك وأنه تولى القضاء بولاية شيراز، وبيَّنت بعض هذه الكتب تفاصيل تعيينه للقضاء، وأن البيضاوي طلب القضاء، ثم اختلف المؤرخون في الوسيلة التي وصل بها إلى القضاء على ثلاث روايات، وسوف نذكر هذه الروايات ثم نعقب عليها.

الرواية الأولى: انفرد بها الخوانساري، وأن البيضاوي رحمه الله توصل إلى القضاء عن طريق كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم، المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، فقال: (وقد صار هذا الكتاب منتشراً في العالم، وسبب تقربه عند سلطان العصر، واختصاصه بمنصب قضاء القضاة،

---

(١) رواه مسلم والنسائي وأحمد والبيهقي والحاكم. (الفتح الكبير ١/٣٦٨).

وذلك أنه بعث إليه بكتاب تفسيره المذكور، فاستحسنه منه، وأشار إليه أن يطلب من الحضرة السلطانية بإزاء هذا العمل السديد، فقال: أريـد قضاء البيضاء، لكي أترفّع به بين أهل دياري الذين كانوا ينظرون إليَّ بعين التحقير)[1].

وطلب القضاء جائز باتفاق العلماء، ولكن ذهب الجمهور إلى كراهية الطلب لما فيه من شبهة، أو اتهام للطالب أن يكون ذلك لحظّ نفسه، أو لغرض شخصي، أو هدف محرم، وقال بعض الفقهاء يجوز طلب القضاء من الصالح له، لقوله تعالى على لسان يـوسف: ﴿قال: اجعلني على خـزائن الأرض، إني حفيظ عليم﴾ [يوسف/٥٥].

وهناك حالات يجوز فيها طلب القضاء عند بعض الفقهاء، منها: إذا تعيّن القضاء على شخص واحد، ولا يوجد غيره صالحاً له، ومنها طلب القضاء لأجل الرزق من بيت المال، ومنها طلب القضاء لنشر العلم، كما إذا كان الطالب رجلاً عالماً، ولكنه غير مشهور، ولا معروف، ويريد أن يشتهر علمه، ويستفيد الناس منه، فيجوز له ذلك[2].

فطلب البيضاوي للقضاء لا غبار عليه، وقد يكون حرصه عليه، وسعيه وراءه، لأنه يأنس من نفسه القدرة على أعباء

---

(١) «روضات الجنات» ص ٤٥٤.

(٢) انظر: «أدب القضاء» لابن أبي الدم ص ٣٥، ٣٨، ٤١، «التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي» ص ٥١.

القضاء، والكفايـة للقيام به، والثقة لتحمل مسؤوليته، وأنه صالح له، أو أنه الأصلح والأفضل والأقدر للقيام بهذه المهمة الخطيرة.

وإذا صحت رواية الخوانسـاري من تحديـد رغبته في القضاء: (لكي أترفع به بين أهل دياري، الذين كانوا ينظرون إليَّ بعين التحقير) فإنها تتفق مع الحالة الأخيرة التي نص الفقهاء: (على جواز طلب القضاء من أجل نشر العلم، إذا كان الطالب غير مشهور ولا معروف، ويريد أن يشتهر علمه، ويستفيد الناس منه)، وهذا ما حصل مع البيضاوي رحمه الله.

لكن هذه القصة تتعارض مع ما عرف عن مكانة البيضاوي العلمية، وطبائعه الشخصية، ومركزه الاجتماعي، ومكانـة أسرته، فكان والده قاضياً للقضاة، وكان جده قاضياً وعالماً، كما كان والده مقرَّباً للأتابك أبي بكر سلطان فارس، فكيف يُنظـر للبيضاوي بعين التحقيـر؟! إلا إذا كـانت الـظروف الاجتماعية والسياسية والعلمية في ذلك العصر تعدُّ التقرب من الحاكم منقصة، أو أن هذه النظرة كانت بسبب عزل البيضاوي عن القضاء في مرة سابقة، فأحسّ بالإهانة التي لحقته من ذلك، فأراد أن يعيد اعتباره بين الناس.

وهذا الاحتمال الأخير يتفق مع ما يراه فضيلة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور من أن البيضاوي قد أقبل على تفسير

القرآن في الحقبة الأخيرة من حياته، حقبة الاستقرار في تِبريز، بعد أن تقلّد سابقاً منصب قاضي القضاة في شيراز، ثم صرف عنها، وبذلك يكون تأليف تفسير البيضاوي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري[1]، ويتفق ذلك أيضاً مع ما ذكره حاجي خليفة أن البيضاوي لازم الشيخ محمد الكتحتائي في تِبريز إلى أن مات، وصنف التفسير بإشارة شيخه[2].

الرواية الثانية: ذكرها أكثر المؤرخين بألفاظ متقاربة، أحسنها ما سطره ابن السبكي، فقال: (ودخل تِبريز، وناظر بها، وصادف دخوله إليها مجلس درس قد عُقِد بها لبعض الفضلاء، فجلس القاضي ناصر الدين في أُخريات القوم، بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرس نكتة، زعم أن أحداً من الحاضرين لا يقدر على جوابها، وطلب من القوم حلَّها، والجواب عنها، فإن لم يقدروا فالحل فقط، فإن لم يقدروا فإعادتها، فلما انتهى من ذكرها شرع القاضي ناصر الدين في الجواب، فقال له: لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها، فخيَّره بين إعادتها بلفظها أو معناها، فبُهت المدرِّس، وقال: أعدها بلفظها، فأعادها ثم حلَّها، وبين أن في تركيبه إياها خَلَلاً، ثم أجاب عنها، وقابلها في الحال بمثلها، ودعا المدرس إلى

---

(١) «التفسير ورجاله» ص ٩١.

(٢) «كشف الظنون» ١/١٦٢.

حلّها، فتعذر عليه ذلك، فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه إلى جانبه، وسأله: من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه، وخلع عليه في يومه، وردَّه، وقد قضى حاجته)[1].

الرواية الثالثة: ذكرها بعض المؤرخين، فقال حاجي خليفة: (وقيل: إنه طال مدة ملازمته، فاستشفع من الشيخ محمد بن محمد الكتحتائي، فلما أتاه ـ أي السلطان ـ على عادته، قال: إنَّ هذا الرجل عالم فاضل، يريد الاشتراك مع الأمير في السعير، يعني أنه يطلب منكم مقدار سجّادة في النار، وهي مجلس الحكم، فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه، وترك المناصب الدنْيوية، ولازم الشيخ ـ أي في تِبريز ـ إلى أن مات)[2].

وذكر الخوانساري أن البيضاوي استعان بالشيخ العارف بالله خواجه محمد الكنجاني (كذا) في نجاح مقصده في القضاء، فقال: (وقيل: إنه قد استند في إنجاز هذا المقصد بذيل همة العارف الأوحد خواجه محمد الكنجاني)، فرفع

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٨، وانظر: «طبقات المفسرين» للداودي ١/٢٤٣، «نزهة الجليس» ٢/٨٧، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٤، «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٨، «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٦، «الغاية القصوى» ١/٦٠.

(٢) «كشف الظنون» ١/١٦٢.

الشيخ طلبه إلى الملك بقوله: (إن استدعائي من حضرة الملك في هذه الليلة أن يقطع قطعة من رباع جهنم لشخص كان يتوقعها من جنابك. . .، فأجابه الملك إلى سؤاله من غير فتور. . .، لكن القاضي المزبور لما سمع بكلام العارف المذكور مع حضرة السلطان المبرور، وتأمل في حقيقته، تنبّه من رقدته، وتندّم على ما كان)[١].

ويظهر من هذه الروايات أنها لم تحدد تاريخ التعيين في منصب القضاء، ويبدو عليها بعض التناقض والتعارض، والظاهر إمكان الجمع بينها، وأن البيضاوي رحمه الله عُيِّن قاضياً في البيضاء، ثم قاضياً بشيراز، ثم عزل، فسعى إلى القضاء مرة ثالثة، ويؤيد هذا ما نقله حاجي خليفة عن التاج السبكي في «الطبقات الكبرى»: (أن البيضاوي لما صرف عن قضاء شيراز، رحل إلى تِبريز، وصادف دخوله مجلس درس،... وأخبر الوزير أنه جاء في طلب القضاء بشيراز فأكرمه، وخلع عليه في يومه، وقد قضى حاجته)[٢]، والجملة الأولى غير موجودة في «الطبقات الكبرى» للتاج السبكي المطبوعة الآن، ولعلها سقطت من المخطوطة.

---

(١) «روضات الجنات» ص ٤٥٥، وانظر: «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٦٣.

(٢) «كشف الظنون» ١/١٦٢، وانظر: «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٨.

ويحتمل أن يكون البيضاوي قد عُيِّن في القضاء أولاً بشيراز، ثم صرف عنه، ثم عُيِّن ثانياً، ثم عزل، ثم طلب قضاء البيضاء، لما ذكره الخوانساري عن تفسير البيضاوي أنه كان سبباً لتقرّبه من السلطان، وطلب قضاء البيضاء[١]، كما سبق.

توليته قاضي القضاة:

قاضي القضاة هو رئيس للقضاة، ينظم شؤونهم، ويتولى أمرهم، ويشرف على عملهم، ويقوم بتعيين القضاة، وعزلهم، ويتفقد أعمالهم، ويراجع أحكامهم، وقد أُنشئت هذه الوظيفة في العهد العباسي، وعُيِّن الإمام أبو يوسف قاضي القضاء، وكان يسمى في الأندلس بقاضي الجماعة، وأصبح في كل قطر قاضٍ للقضاة، له ديوان يعرف باسمه، ويرجع إليه[٢].

وكان والد البيضاوي الشيخ عمر قاضياً للقضاة في شيراز، ويحتمل أن يكون الإمام البيضاوي تولى منصب قاضي القضاة بعد والده، واستمر فيه إلى أن عزل، وهذا يفسر حرص البيضاوي فيما بعد على طلب القضاء عند ذهابه إلى

---

(١) «روضات الجنات» ص ٤٥٥.

(٢) انظر: «القضاء في الإسلام» مذكور ص ٣١، «أصول المحاكمات الشرعية والمدنية» ص ٥٦.

تبريز ليرفع عنه النظر بعين التحقير، ولكن لم يرد نص صريح يفيد ذلك.

والشيء الثابت أن البيضاوي تولى منصب قاضي القضاة، كما نص عليه معظم المؤرخين، وصرح به ابن السبكي في ترجمته، فقال: (ولي قضاء القضاة بشيراز)[1]، ثم أفاد ابن السبكي في مكان آخر أن البيضاويّ تولّى قضاء القضاة في شيراز لمدة ستة أشهر فقط، وذلك عندما ترجم ابن السبكي لقاضي القضاة مجد الدين إسماعيل بن يحيـى بن إسماعيل التميمي الشيرازي البالي، فقال عنه: (وولي قضاء القضاة بفارس، وهو ابن خمس عشرة سنة، وعُزل بعد مدة بالقاضي ناصر الدين البيضاوي، ثم أُعيد بعد ستة أشهر، وعُـزل القاضي ناصر الدين، واستمر مجد الدين على القضاء خمساً وسبعين سنة، وكان مشهوراً بالدين والخير والمكارم، وحفظ القرآن وكثرة التلاوة)[2]. وبيَّن ابن السبكي أن مجد الدين البالي قد توفي سنة ٧٥٦ هـ عن أربع وتسعين سنة بشيراز، فتكون ولادته سنة ٦٦٢ هـ، وأنه تولى قاضي القضاة أول مرة سنة ٦٧٧ هـ، وبقي مدة ثم عُزل، وأنه بقي في القضاء في المرة الثانية ٧٥ سنة، أي أنه عُيِّن فيه سنة ٦٨١ هـ، وبذلك

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ١٥٨/٨، وانـظر: «نزهـة الجليس» ٨٧/٢، «نهاية السول» ٤/١، «مطالع الأنظار» ص ٣.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٤٠١/٩ وما بعدها.

تتحدّد فترة قضائه الأولى ثم عزله ما بين (٦٧٧ هـ - ٦٨١ هـ) وأن الإمام البيضاوي تولى هذا المنصب غالباً سنة ٦٨٠ هـ أو سنة ٦٨١ هـ، لمدة ستة أشهر فقط.

عزله عن القضاء:

يظهر مما سبق أن الإمام البيضاوي تولى القضاء أكثر من مرة، وأنه لم يستمر كثيراً على منصة القضاء، واتفقت كتب التراجم على أنه عُيِّن على القضاء مدة ثم عُزل، ولم تصرح بالكيفية، لكن وردت بعض الإشارات إلى السبب، كما صرّحت بعض المراجع إلى أن القاضي البيضاوي اعتزل بنفسه القضاء.

والظاهر أن كلا الأمرين صحيح، وذلك بالجمع بينهما، فقد نص حاجي خليفة في نقله عن ابن السبكي: (أن البيضاوي **لما صُرف عن قضاء شيراز** رحل إلى تبريز. . .، وأخبر الوزير أنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه، وخلع عليه في يومه، وردّه، وقد قضى حاجته)[1].

ويظهر أن السبب في هذا العزل شدة البيضاوي في القضاء، ووقوفه على الحق، مما أثار عليه الحفيظة، وشحن النفوس، فعُزل، وهو ما صرح به المراغي فقال: (صُرف عن القضاء لشدته في الحق)[2]. وقال ابن العماد: (ولي أمر

(١) «كشف الظنون» ١/١٦٢.

(٢) «الفتح المبين» ٢/٨٨.

القضاء بشيراز، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز)[1].

كما جاء النص صراحة على أن البيضاوي اعتزل القضاء، أو منصب قاضي القضاة، بنفسه، وَرَعاً وزهداً، وهو ما ذكره حاجي خليفة أن البيضاوي ندم على طلب القضاء الذي استعان عليه بالشيخ محمد الكتحتائي، بعد أن ذكّره الشيخ بعواقبه، وحذّره من مغبته، وهو ما ذكرناه في الرواية الثالثة، وفيها: (فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه، وترك المناصب الدنيوية، ولازم الشيخ - أي في تبريز - إلى أن مات)[2]، وهو ما أكّده الخوانساري أيضاً فقال: (لكن القاضي المزبور لما سمع بكلام العارف المذكور، مع حضرة السلطان المبرور، وتأمل في حقيقته تنبّه من رَقْدته، وتندّم على ما كان)[3]. وهذان النصان يدلان على أن البيضاوي اعتزل القضاء بنفسه.

ويظهر أن الإمام البيضاوي تأثر بكلام شيخه، ثم قرر أن يعتزل القضاء بنفسه بسبب الظروف السياسية، والاضطرابات الداخلية التي طرأت بعد سقوط بغداد، ذلك أن أمير فارس الأتابك أبا بكر بن سعد بن زنكي حمى بلاده من شر المغول

(١) «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢.

(٢) «كشف الظنون» ١/١٦٢.

(٣) «روضات الجنات» ص ٤٥٥، وانظر: «الغاية القصوى» - المقدمة ١/٩٢.

وخطرهم، عند قدومهم، بأسلوب سياسي حكيم، وسالم المغول، وبذل لهم الطاعة، فسلم على مملكته، وهيأ الأمن والرخاء فيها، حتى مال إليه العلماء، ومن فرّ من سائر البلاد، واجتمعوا عنده، ولما توفي أبو بكر بن سعد تغيرت حال الدولة السلغرية، وتبدل سعدها إلى نحس، واستولى هولاكو على جميع إيران، ونشر الرعب والخوف والاضطراب والفساد، وعطّل الأحكام، فتخلّى البيضاوي عن القضاء، لشدته وحرصه والتزامه بالشرع، وردَّ المناصب التي كُلِّف بها، وذهب إلى تبريز، وتفرغ للعلم، وانزوى للتأليف والتدريس، واعتكف على نشر العلوم، ولازم شيخه الأثير(١).

---

(١) انظر: «التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان» ص ١١٧.

الفصل الخامس

مكانة البيضاوي

تتحدّد مكانة الإنسان في الحياة بمركزه الاجتماعي، وعطائه وإنتاجه، وجدّه وأعماله، ومنهجه وسلوكه، وتعامله وعلمه.

والإمام البيضاوي احتل مكانة رفيعة في بلده ووطنه، وتبوّأ مركزاً مرموقاً في المجتمع، وتظهر له هذه الصورة من خلال الأمور التالية:

١ ـ كان البيضاوي من أسرة معروفة كما سبق، فكانت تجمع بين العلم الديني الذي يمثل قطب الرحى في الحياة والنفوس، وبين المناصب العليا في القضاء، وهذان الأمران كفيلان بإقامة هالة وضّاءة للإنسان، فالناس تلتف حول العلماء، وتقتبس من علمهم، وتقدم لهم الاحترام، وتتقرب إليهم لمعرفة أحكام الشرع التي تغطي جميع جوانب الحياة، وترافق المسلم في جميع أعماله، وتقدم له الخير والرشد والصلاح، وتهديه إلى سواء السبيل، والعلماء ورثة الأنبياء في ذلك.

٢ ـ تولى الإمام البيضاوي القضاء عدة مرات، كما عُيِّن في منصب قاضي القضاة، كما سبق، وهذا كفيل بأن يعطي صاحبه الهيبة والوقار، والسلطة والولاية.

٣ ـ قدّم القاضي البيضاوي لبلده وأهله، ومجتمعه وأمته، إنتاجاً علمياً ممتازاً، كما سنبين ذلك في القسم الثاني، فالتف الناس حوله لأخذ كتبه، وسماعها منه، وقصده الطلاب والعلماء، وانكبّ كثير على شرح مصنفاته النافعة المفيدة في أثناء حياته، كما سنرى.

٤ ـ كان القاضي البيضاوي ورعاً زاهداً، وظهر ذلك من قصته السابقة في اعتزال القضاء، وتفرّغه للعلم والعبادة، وانقطاعه للإفادة والتدريس والتصنيف. وإن الزهد من أهم العوامل لمحبة الناس، لما روى سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دُلَّني على عملٍ إذا عَمِلتُه أَحَبَّني اللهُ، وأَحَبَّني الناسُ، فقال: ازهدْ في الدنيا يحبُّك اللهُ، وازهَدْ فيما عندَ النَّاسِ يحبُّك الناس»[1].

٥ ـ اتفقت كتب التراجم والتاريخ على الأوصاف العامة للإمام البيضاوي، فقالوا: إنه كان قاضياً، ورعاً،

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/١٤٧٤)، والطبراني في معجمه الكبير، والحاكم في المستدرك؛ وقال الإمام النووي: حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة. («نزهة المتقين» ١/٤٢٠).

صالحاً، تقِيّاً، مفتياً، شديداً في الحق، عالماً، علامة، زاهداً، عادلاً، نظاراً، ونقتبس بعض نصوصهم:

قال **ابن كثير**: (هو القاضي الإمام العلّامة، ناصر الدين، عبد الله بن عمر، الشيرازي، قاضيها وعالمها، وعالم أذربيجان وتلك النواحي)[1].

وقال **ابن السبكي**: (كان إماماً مبرِّزاً، نظَّاراً، صالحاً، متعبِّداً، زاهداً)[2].

وقال **الخوانساري**: (كان إماماً علّامة، عارفاً بالفقه والتفسير والأصولين والعربية والمنطق، نظاراً، صالحاً، متعبداً، شافعياً)[3].

وقال **الحسيني الموسوي**: (تولى قضاء القضاة بفارس، وكان زاهداً، عابداً، متورعاً)[4].

وقال **الإسنوي**: (كان المذكور عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً، خيِّراً)[5].

---

(١) «البداية والنهاية» ١٣/ ٣٠٩.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/ ١٥٧.

(٣) «روضات الجنات» ص ٤٥٤.

(٤) «نزهة الجليس» ٢/ ٨٧.

(٥) «طبقات الشافعية» ١/ ٢٨٣.

وقال الداودي: (كان إماماً، علّامة، عارفاً بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق، نظاراً، صالحاً متعبِّداً، زاهداً، شافعياً)[1].

وقال الصفدي: (الشيخ الإمام العلّامة المحقق المدقق، ناصر الدين الشيرازي، البيضاوي، صاحب التصانيف البديعة المشهورة)[2].

وقال ابن تَغْري بَرْدي: (القاضي ناصر الدين البيضاوي الشافعي، الشيرازي، العالم، صاحب التصانيف المشهورة)[3].

وقال اليافعي: (الإمامٍ، أعلم العلماء الأعلام، ذو التصانيف المفيدة المحقّقة، والمباحث الحميدة المدقَّقة)[4].

---

(١) «طبقات المفسِّرين» ١/٢٤٢.

(٢) «الوافي بالوفيات» ١٧/٣٧٩.

(٣) «الدليل الشافي» ١/٣٨٨.

(٤) «مرآة الجنان» ٤/٢٢٠.

الفصل السّادس

وفاة البيضاويّ

عاش البيضاوي حياته السعيدة، متقلِّباً في المناصب الرفيعة، والمكانة المرموقة، وطال سنُّه حتى أصبح من المعمَّرين، واعتزل الوظائف الدنيوية في آخر حياته.

ولما ترك البيضاوي القضاء بشيراز ارتحل إلى تبريز التي كانت العاصمة الرئيسية في تلك الفترة، وليقترب من شيخه محمد الكتحتائي، فلازمه إلى أن مات، وأقام بعده بتبريز ينشر العلوم والمعارف، ويصنف الكتب المفيدة، والمصنفات المشهورة، وأوصى قبل وفاته أن يُدفن عند قبر شيخه، ولما مات دُفن عند قبره في خرنداب تبريز على شرقي تربة الخواجه ضياء الدين يحيى[1].

---

(١) كما أوصى القاضي البيضاوي إلى قطب الدين الشيرازي (٧١٠ هـ)، أن يُدفن بجانبه، ثم أوصى القطب الشيرازي أن يدفن إلى جانب البيضاوي، وهكذا أوصى كل منهما أن يدفن إلى جانب صاحبه لشدة المحبة بينهما.

(انظر: «كشف الظنون» ١/١٦٢، «روضات الجنات» =

واتفق المؤرخون على أن البيضاوي توفي في مدينة تِبريز ودُفن بها، لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاته على عدة أقوال، ثلاثة منها مقبولة، وتحتمل الصحة، لأنها صدرت عن أعيان القرن الثامن الهجري، وهم ابن السُّبْكي (٧٧١ هـ)، والصفدي (٧٦٤ هـ)، والإسنوي (٧٧٢ هـ)، واليافعي (٧٦٨ هـ)، وابن كثير (٧٧٤ هـ)؛ وكانوا قريبي العهد بالبيضاوي، وكلهم توفي بعده بقليل، وهناك عدة أقوال شاذة وغريبة سوف نشير إليها.

ذهب أكثر المؤرخين وعلماء التراجم والرجال إلى أن البيضاوي توفي سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م، وهو ما اقتصر عليه أكثر المعاصرين، اعتماداً على ما ذكره الصفدي بالسند، قال: (قال لي الحافظ نجم الدين سعيد الدهلي الحنبلي الحريري: توفي رحمه الله تعالى في سنة خمس وثمانين وستمائة بتبريز، ودفن بها)[١]، وتابع أكثر المؤلفين وأصحاب المصادر الصفدي في هذا التاريخ، وهو قول ابن كثير[٢].

= ص ٤٥٥، «البداية والنهاية» ١٣/ ٣٠٩، «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/ ٥٥).

(١) «الوافي بالوفيات» ١٧/ ٣٧٩.

(٢) انظر: «روضات الجنات» ص ٤٥٥، «البداية والنهاية» ١٣/ ٣٠٩، «شذرات الذهب» ٥/ ٣٩٢، «نزهة الجليس» ٢/ ٨٧، «بغية الوعاة» ٢/ ٥٠، «طبقات المفسرين» ١/ ٢٤٣، «مفتاح السعادة» ٢/ ١٠٤، «الأعلام» ٤/ ٢٤٨، «الفتح المبين» ٢/ ٨٨، «معجم المؤلفين» =

أما ابن السبكي فلم يذكر وفاة البيضاوي في «الطبقات الكبرى»، وإنما ذكرها في «الطبقات الوسطى»، وحدّدها سنة ٦٩١ هـ، وأيّده الإسنوي في ذلك، ونقل الكثيرون عنهما هذا التاريخ(١).

وذهب اليافعي إلى تحديد الوفاة بسنة ٦٩٢ هـ، وقال به بعض العلماء(٢).

أما الأقوال الشاذة فذكر بعضها حاجي خليفة، فقال أحياناً: توفي سنة ٦٨٢ هـ، ولم يبيِّن مصدراً لقوله، ونقل في عدة أمكنة أنه توفي سنة ٦٨٥ هـ، وجمع بين القولين في مكان ثالث، فقال: إنه توفي سنة ٦٨٥ هـ أو ٦٨٢ هـ، وقال في مكان رابع: توفي سنة ٦٨٤ هـ(٣).

ونقل البغدادي أنه توفي سنة ٦٩٦ هـ، ولم يذكر مصدراً،

= ٦/٩٧، «الدليل الشافي» ١/٣٨٨، «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٥٥.

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧، والوسطى بهامشها، «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/٢٨٣، «بغية الوعاة» ٢/٥١، «هدية العارفين» ١/٤٦٣، «معجم المؤلفين» ٦/٩٧.

(٢) «مرآة الجنان» ٤/٢٢٠، «روضات الجنات» ص ٤٥٥، «معجم المؤلفين» ٦/٩٧.

(٣) «كشف الظنون» ٢/١٠١، ٤٤٢، ٥٣٨، ٢/٥٥٤، ١/١٦٢، ٢/٦٠٤.

ولم يشاركه أحد، ولعله تصحيف عن سنة ٦٩١ هـ[١].

ونقل الخفاجي قولاً شاذاً آخر، واعتمده، فقال: (والذي أعتمده، وصححه المؤرخون في التواريخ الفارسية أنه توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٧١٩ هـ تقريباً، ويشهد له ما في آخر تاريخ البيضاوي «نظام التواريخ»)، وقال الخفاجي: (وهو المعتمد)، بينما قال عن القول الأول سنة ٦٨٥ هـ: (هذا هو المشهور)[٢].

وعلق بعض المحشِّين على كلام الخفاجي بقولهم: (كيف يعتمد عليه، مع هذه الاختلافات الكثيرة، فالأَوْلى السكوت وعدم التعرض له)[٣].

وردَّ بروكلمان هذا القول الشاذ، واستبعده قائلاً: (غير أنه ليس من المحتمل أن تكون وفاته قد تأخرت حتى عام ٧١٦ هـ/ ١٣١٦م)، لكن بروكلمان اعتمد هذا في مكان آخر[٤].

---

(١) «هدية العارفين» ١/ ٤٦٣.

(٢) «حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي» ١/ ٤، «نهاية السول» ١/ج.

(٣) «حاشية القنوي مع حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي» ١/ ٣ عن «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/ ٥٦.

(٤) «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/ ٤١٨، «تاريخ الأدب العربي» ٦/ ٢٣٦، ٢٤٠.

وأرى أن الراجح هو القول الأول الذي ذكره الصفدي بالسند في رواية الحافظ نجم الدين سعيد الدهلي المحدث الثقة[١] الذي كان معاصراً للبيضاوي، ولم يشر الصفدي إلى غيرها، مما يؤكِّد اقتصاره عليها، فتكون وفاة البيضاوي سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م، وهذا ما سار عليه المعاصرون[٢].

ومهما كان الاختلاف في سنة الوفاة فإن ذلك لا يؤثر في شيء، ولا يغيِّر من الحقيقة، فالموت حق، وقد لقي الإمام البيضاوي أجله المحتوم الذي قدّره الله تعالى، ولكن بعد أن قضى عمراً حافلاً بالإنجازات، وحياة مليئة بالعطاء، وقد انتقلت روحه الطاهرة راضية مَرْضية إلى جوار ربّها، وانقطع نصيبها من الدنيا، ولكن حياته الروحية، وشخصيته العلمية لم تنقطع، بل ازدادت شيوعاً وانتشاراً، وبقيت آثاره العلمية خالدة تنتفع بها الأمة، وتنهل منها الأجيال، ليبقى ثوابه دائماً غير منقطعٍ، وهو ما سنشرحه في القسم الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) «ذيل تذكرة الحفاظ» للحسيني، ص ٥٧.

(٢) «الأعلام» ٤/٢٤٨، «الفتح المبين» ٢/٨٨، «معجم المؤلفين» ٦/٩٧، «التفسير ورجاله» ص ٩٢.

القسم الثاني

حياة البيضاوي العلمية

توطئـــة:

لاحظنا فيما سبق أن حياة البيضاوي الشخصية يحيط بها كثير من النسيان والضياع، ويعلوها شيء من الخفوت، وعلى العكس من ذلك فإن حياة البيضاوي العلمية واضحة كل الوضوح، ومشرقة كأشعة الشمس، وناصعة كبياض الثلج.

ولئن انتهت حياة البيضاوي الشخصية في سنة معينة، ومنذ أكثر من سبعة قرون، فإن حياته العلمية دائمة متصلة، وثابتة راسخة، وكثيرة عامة، ونافعة مفيدة، وهي أعظم بكثير من المعرفة الشخصية، ولو كانت كاملة وتامّة ومفصّلة.

وقد رفع الإمام البيضاوي ذكراه العطرة بعطائه وإنتاجه، وإخلاصه وإتقان كتبه، فبقيت هذه الذكرى شامخة، وكأن البيضاوي حيّ في النفوس والقلوب، وكأنه قائم يعلّم ويدرّس، ويناظر ويبحث، في كل مدرسة وجامعة، ومسجد أو مجلس علمي، وهذا هو العطاء الحقيقي، والحياة

الدائمة، وليست الحياة بالأيام والساعات التي يقضيها، وهو ما قصده الشاعر بقوله:

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوانٍ
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثانٍ

والقاضي البيضاوي رحمه الله تعالى صنف كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة، كالفقه وأصول الفقه، والتفسير والحديث، وأصول الدين والعربية، والمنطق والجدل، والهيئة والتاريخ، والتهذيب والأخلاق.

ورزق الله تعالى البيضاوي التوفيق في التأليف، والنجاح في التصنيف، والسداد في اختيار المعلومات والدِّقة في العلم، وتفضل الله عليه بإقبال الناس على كتبه، وانتشار مصنفاته، وشيوعها في الأقطار، وانكبّ عليها العلماء وطلاب العلم، وانتسبوا إلى البيضاوي، وتتلمذوا على كتبه، فالعلم نسب ورحم بين أهله.

وإذا كانت كتب التراجم والتاريخ لم تسعفنا في معرفة تلاميذه بسبب الاضطراب السياسي والاجتماعي، وفقدان الأمن والطمأنينة، وتقطّع أوصال البلاد الإسلامية، وسيطرة الخوف والرعب على يد المغول، فإن كتب البيضاوي كانت السفير الصادق لنا، والرسول الأمين، والترجمان الصحيح،

واللسان الفصيح، والصلة الوثقى بيننا وبينه، وقد تتلمذ المسلمون ـ جيلاً بعد جيل ـ على كتب البيضاوي، وتلقّاها العلماء بالقبول، وعكف عليها الطلاب بالدراسة والحفظ[1]، وصارت كتبه معتمدة في الجامعات الإسلامية، والمعاهد العلمية، للتدريس، وطبع الكثير منها عدة طبعات في عدة أقطار عربية وإسلامية، كما ترجم بعضها إلى عدة لغات.

وامتازت كتب البيضاوي بالاختصار والدقة، وسلامة الاختيار، وحسن التبويب والتنظيم، وصارت قطب الرحى لعدد كبير من العلماء والمصنفين، وتركزت عليها الدراسة، فتناولوها بالشروح العديدة، والحواشي الكثيرة، والتعليقات المتنوعة المفيدة، كما سنرى، حتى اشتهر البيضاوي بكتبه، وعرف في العالم الإسلامي بها، وحظي بالثناء العاطر، والذكر الجميل، وهذه بعض النصوص في ذلك:

قال **ابن كثير**: (البيضاوي صاحب التصانيف)[2].

وقال **اليافعي**: (الإمام أعلم العلماء الأعلام، ذو التصانيف المفيدة المحققة، والمباحث الحميدة المدققة)، ثم قال: (وللقاضي ناصر الدين المذكور مصنفات عديدة، ومؤلفات

---

(١) نقل طاش كبري زاده عن محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي (٨٣٣ هـ) أنه كان يحفظ منهاج البيضاوي، وذكر كثير من العلماء مثل ذلك. (انظر: «مفتاح السعادة» ٢/٥٧).

(٢) «البداية والنهاية» ١٣/٣٠٩.

مفيدة)، وذكر بعضها، ثم قال: (وغير ذلك مما شاع في البلدان، وسارت به الركبان، وتخرج به أئمة كبار، رحمه الله تعالى رحمة الأبرار)[1].

وقال **الخوانساري**: (صاحب التفسير المعتمد عليه عند علماء الجمهور)، وقال: (وأشهر مصنفاته في زماننا هذا تفسيره)[2].

وقال **الحسيني الموسوي**: (القاضي البيضاوي صاحب التصانيف المشهورة)[3].

وقال **الصفدي**: (العالم العلامة، المحقق المدقق، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، صاحب التصانيف البديعة المشهورة)[4].

ونقل ابن العماد الحنبلي عن ابن حبيب أنه قال عنه: (تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته)[5].

وقال **العزاوي**: (البيضاوي من أعاظم علماء الإسلام،

---

(١) «مرآة الجنان» ٤/ ٢٢٠.
(٢) «روضات الجنات» ص ٤٥٤.
(٣) «نزهة الجليس» ٢/٨٧، وانظر: «كشف الظنون» ٢/١٠٥.
(٤) «الوافي بالوفيات» ١٧/ ٣٧٩.
(٥) «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢.

ذاعت شهرته في الأقطار، بحيث دخلت مؤلفاته في مناهج التدريس، وصار تفسيره يدرس في المدارس العلمية، ويعد من كتب التفسير المعتبرة، ولم يعرف أنه مؤرخ، وإنما هو قاض وفقيه شافعي، وما كان يظن امرؤ أن الاضطراب في العالم الإسلامي يؤرخ عنه فقيه أصولي، ومفسر ديني)[1].

وقال **الشيخ محمد الفاضل بن عاشور** عن تفسير البيضاوي: (فأحله الناس منذ بروزه واشتهاره في النصف الثاني من القرن السابع محل الاعتماد والإقبال، وعكفوا عليه عكوفهم على المرجع الأصلي للتفسير)، ثم قال: (وعمّت منزلته تلك أقطار الإسلام في المشارق والمغارب، فتأصّلت منزلته أولاً في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، والتزم في المناهج الدراسية ببلاد فارس وبلاد الأفغان والأقطار الهندية، ثم كان في جملة ما تسرّب من الملتزمات التعليمية من البلاد الفارسية إلى آسيا الصغرى، وعموم الممالك العثمانية، واشتهر بمصر من قبل الفتح العثماني)[2].

وقال **المراغي**: (ألف مصنفات عدة، تدل على قدم راسخة في التأليف، وبراعة فائقة في التصنيف)[3].

---

(١) «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٦.
(٢) «التفسير ورجاله» ص ٩٤، ٩٩ وما بعدها.
(٣) «الفتح المبين» ٢/ ٨٨.

وقال طاش كبري زاده: (صنف التصانيف المشهورة في أنواع العلوم)[1].

تصانيف البيضاوي:

تنقسم مصنفات البيضاوي إلى قسمين، قسم مشهور ومعروف، وذكرته معظم المصادر، وقسم غير مشهور، انفرد بذكره بعض المؤرخين في المراجع التي سنشير إليها، كما أن أهم كتبه قد وصلت إلينا، وبعضها فُقد ولا نعرف عنه شيئاً إلا الاسم، ولعله ضاع مع ما ضاع من تراث الإسلام في النكبات، أو لا يزال محفوظاً في مكتبات ومدارس مجهولة، وقد يظهر للوجود في المستقبل، وهذا ثَبَت لتصانيف البيضاوي[2].

١ - «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، ويسمى «تفسير البيضاوي»، وهو التفسير الذي ذاع في الأمصار، واشتهر البيضاوي به أثناء حياته، وتلقاه العلماء شرقاً وغرباً بالقبول والشرح والحواشي، وطبع عدة مرات.

٢ - «تحفة الأبرار» في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.

٣ - «الغاية القصوى في دراية الفتوى» في فروع الفقه الشافعي.

(١) «مفتاح السعادة» ٢/١٠٣.

(٢) انظر: «إيضاح المكنون» ١/١٣١، ٢/٢٦٩، ٥٩٠، «هدية=

٤ - «شرح التنبيه للشيرازي» في الفقه الشافعي في أربع مجلدات، ذكره ابن كثير.

٥ - «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، وهو المختصر المشهور في أصول الفقه.

٦ - «شرح منهاج الوصول».

٧ - «شرح المنتخب» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.

٨ - «شرح المحصول» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي أيضاً، ذكره ابن كثير.

٩ - «مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام»، وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.

١٠ - «طوالع الأنوار في أصول الدين».

١١ - «مصباح الأرواح»، اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.

١٢ - «الإيضاح في أصول الدين»، وهو شرح على كتاب المصباح.

= العارفين» ١/٤٦٣، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٥، ١٧٩، «معجم المؤلفين» ٦/٩٧، «كشف الظنون» ١/١٦٢، ٢/١٠١، ٥٣٨، «نهاية السول» ١/د، «البداية والنهاية» ١٣/٣٠٩، «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٨، «حاشية الشهاب الخفاجي» ١/٤، وبقية كتب التراجم السابقة.

١٣ ـ «شرح الكافية» في النحو لابن الحاجب.

١٤ ـ «لب الألباب في علم الإعراب»، اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.

١٥ ـ «شرح المطالع»، وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.

١٦ ـ «متن في علم الهيئة»، وهو مختصر ذكره الخفاجي.

١٧ ـ «نظام التواريخ» باللغة الفارسية، من ابتداء الخلق حتى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م.

١٨ ـ «التهذيب والأخلاق» في التصوف، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السول.

١٩ ـ «رسالة في موضوعات العلم وتعاريفها»، ذكرها البغدادي والزِّرِكلي.

٢٠ ـ «شرح الفصول» لنصير الدين الطوسي، ذكره البغدادي والخوانساري.

٢١ ـ «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى»، ذكره البغدادي.

وهذا المسرد لمصنفات البيضاوي يدل على الجوانب المختلفة لحياته العلمية، وثقافته الواسعة، وإنتاجه الطيب الوفير، وسوف نقسم هذه الكتب بحسب موضوعاتها على العلوم التي تدخل فيها، ونتناولها بالدراسة تفصيلاً، وذلك في سبعة فصول.

الفصل الأوّل
البيضاويّ فقيهًا

الفقه لغة الفهم، وفي اصطلاح العلماء هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية.

والفقه هو الطريق لمعرفة الحلال والحرام، للالتزام بذلك، والتقيّد به، وقد سما الفقه بين العلوم الشرعية، والتفّ العلماء حوله لإرشاد الناس إلى منهج الله القويم في شؤون الحياة، لبيان الجائز والممنوع.

وتشعّب البحث في الفقه والأدلة منذ عصر الصحابة، واتسع في عصر التابعين، وبرز فيه الأئمة الأعلام الذين دُوِّنت مذاهبهم وآراؤهم، وانتسب إليهم العدد الكبير من الأصحاب الذين خدموا المذهب، ونقّحوه وفرّعوا عليه، ونضجت المذاهب واستقرت في القرن الرابع الهجري، وشاعت وانتشرت في الأقطار الإسلامية، وبلغت الذروة في التصنيف والتنقيح في القرنين الخامس والسادس.

وكان القرن السابع الهجري هو الفترة الحاسمة في تحقيق

الآراء في المذهب الشافعي، وبيان القول الراجح فيه، وتحديد الوجه المعتمد بين الأصحاب.

فقد امتاز القرن السابع بميزة خاصة بالنسبة للمذهب الشافعي، وهو أنه بلغ رتبة الكمال في هذا القرن، وتبوأت كتبه الأوج، وظهر فيه أئمة أعلام وصلوا إلى القمة، وتمت فيه حركة التدقيق والتحقيق لآراء المذهب وأقوال أئمته والأصحاب فيه، وتحقق هذا العمل على يدي محقِّقَي المذهب: الإمام الجليل عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني، الشيخ أبي القاسم الرافعي، صاحب «الشرح الكبير» المسمى: «فتح العزيز في شرح الوجيز» المشهور والمعروف، وتوفي الرافعي سنة **٦٢٣ هـ**[١]، والإمام العلامة، محيي الدين، يحيى بن شرف بن مرة، الشيخ أبي زكريا النووي، المتوفى سنة **٦٧٦ هـ**، صاحب التصانيف الكثيرة[٢]، منها في الفقه «روضة الطالبين» و«منهاج الطالبين» و«المجموع في شرح المهذب»، وكان معهما في هذا العصر عدد كبير من الفقهاء والعلماء[٣].

---

(١) انظر ترجمته في («طبقات الشافعية الكبرى» ٨/٢٨١، والمراجع المشار إليها في الهامش).

(٢) انظر ترجمته في («طبقات الشافعية الكبرى» ٨/٣٩٥، والمراجع المشار إليها في الهامش).

(٣) من هؤلاء الفقهاء الأعلام: ابن أبي الدم الحموي (٦٤٢ هـ)، =

وشارك في هذه النهضة الفقهية للمذهب الشافعي القاضي البيضاوي، فتفقه على علماء بلده بالمذهب الشافعي الذي كان سائداً ومنتشراً في بلاد فارس، ورحل إلى شيراز وتِبريز وغيرهما، وحصّل العلم بالأحكام الشرعية، حتى وثق من نفسه بإتقانها، وطلب القضاء، كما مرّ، حتى وصفه ابن العماد بقوله: (ولي أمر القضاء بشيراز، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز)[1]، ولم تدم ولاية القضاء كثيراً، فاعتزلها، ورحل إلى تبريز، وبدأ بالتصنيف والتأليف.

كتب البيضاوي الفقهية:

تناول البيضاوي رحمه الله تعالى التأليف الفقهي على المذهب الشافعي، وتنوعت هذه الكتب اختصاراً وتطويلاً، كما تنوعت في الأسلوب، وصنف كتابين في الفقه، الأول اختصار لأحد أمهات كتب المذهب، والثاني شرح لأهم مختصر في الفقه الشافعي.

وقبل أن نستعرض الدراسة عن الكتابين لا بد من التنبيه إلى كتاب ثالث نُسب إلى البيضاوي، وهو كتاب «تذكرة في

= وابن الصلاح (٦٤٣ هـ)، والعز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، والفركاح المصري (٦٩٠ هـ) وغيرهم، كما ظهر أئمة وأعلام كبار في القرن السابع في المذاهب الأخرى والعلوم المختلفة، كما أشرنا في التمهيد عن الحالة العلمية.

(١) «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢.

الفروع» وهو كتاب لا نعرف عنه شيئاً، ولم يذكره في مصنفات البيضاوي إلا إسماعيل باشا البغدادي[1]، وذكره حاجي خليفة بصيغة التضعيف فقال: (تذكرة في الفروع على مذهب الشافعي للسراج بن الملقن - ٨٠٤ هـ - ويقال: إن للإمام البيضاوي المفسِّر تذكرة فيه أيضاً)[2].

ونسبة هذا الكتاب للقاضي ناصر الدين البيضاوي خطأ، والصواب أن الكتاب للقاضي أبي بكر البيضاوي، صنفه سنة ٤٢١ هـ، وصرح به ابن السبكي، وقال: (إنه وقف عليه، وهو في مجلدين)[3]، فاشتبه ذلك على البغدادي وحاجي خليفة.

أما كتب البيضاوي في الفقه، فهي:

١ - «شرح التنبيه»:

وهو أربع مجلدات، ذكره ابن كثير وغيره[4]، ولم يظهر له أثر في فهارس الكتب والمكتبات، ولعله لا يزال مجهولاً في بعض الأمكنة والدُّور الخاصة التي تقتني المخطوطات،

---

(١) «هدية العارفين» ١/٤٦٣.

(٢) «كشف الظنون» ١/٢٧٧.

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى» ٤/٩٧، وانظر: «الغاية القصوى» - المقدمة ١/٩٦.

(٤) انظر: «البداية والنهاية» ١٣/٣٠٩، «الفتح المبين» ٢/٨٨.

وتحتفظ بأمهات كتب التراث، أو لعله فُقد مع ما فُقد من تراث الإسلام والمسلمين.

ونقل ابن السبكي عن عبد العزيز بن عبد الكريم الجيلي، شارح التنبيه المشهور، أنه (قد ذكر أنه لخص «الشرح» من الوسيط والبسيط والشامل. . .، والنهاية ومختصرها، وشرح البيضاوي)، وجاء في الهامش أن ابن السبكي قال في «الطبقات الوسطى» عن صاحب الترجمة: (والجيلي استشعر من نفسه أنه ينكر عليه، فعدَّ في خطبة كتابه كتباً كثيرة للأصحاب) ولم يؤرخ وفاته، بل قال: (ولم أعرف إلى الآن من حال الجيلي شيئاً)[1].

ويعتبر «التنبيه» للإمام أبي إسحاق الشيرازي، المتوفى سنة ٤٧٦ هـ، أهم المختصرات الفقهية في المذهب الشافعي قبل أن يصنف الإمام النووي مختصره «المنهاج»، وكان العلماء يتبارَوْن بحفظ «التنبيه» وشرحه، حتى ذاع صيته، واشتهر بين العلماء، وله شروح تزيد عن السبعين[2].

ومن هنا يظهر أهمية «شرح التنبيه» للبيضاوي، وأنه شرح

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/٢٥٧، وفي المكتبة الظاهرية بدمشق كتاب «الموضح في شرح التنبيه» لعبد العزيز بن عبد الكريم الجيلي، الجزء الأول، والثالث.

(٢) انظر: «كشف الظنون» ١/٣٣٣، «الإمام الشيرازي» هيتو ص ١٦٨.

كبير في أربع مجلدات، كما وصفه ابن كثير وغيره، ويمثل أسلوب البيضاوي ومنهجه في الشرح والتفريع.

٢ ـ «الغاية القصوى في دراية الفتوى»:

وهو أهم كتاب فقهي للبيضاوي، شاع بين الناس وانتشر، وأجمعت كتب التراجم والتاريخ وأسماء الكتب على نسبة هذا الكتاب للبيضاوي، وقد حُفظ من عوادي الزمن، وكوارث الأيام، ووصل سالماً كاملاً حتى عصرنا الحاضر[١].

وهذا الكتاب اختصار لكتاب «الوسيط» للإمام حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥ هـ).

ولا تظهر أهمية هذا الكتاب «الغاية القصوى» في الفقه إلا بعد معرفة سلسلة كتب الفقه للمذهب الشافعي.

---

(١) يوجد من كتاب «الغاية القصوى» عدة نسخ مخطوطة وكاملة في دمشق وبغداد والقاهرة، وقد حصلت على نسخة مصورة عن الظاهرية بدمشق، وبدأت بتحقيقها والعمل فيها، وسعيت للحصول على نسختي بغداد والقاهرة، فوصلني من بعض الأحبة والزملاء أن الأخ الفاضل علي محيي الدين القره علي قد قام بتحقيق هذا الكتاب القيم عن ست نسخ خطية، وحصل به على درجة الماجستير من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، عام ١٩٨٢ م في الفقه المقارن، بتقدير امتياز، ونشر الكتاب في دار الإصلاح في الدمام بالسعودية، وأرسلوا لي نسخة منه، فتوقفت عن متابعة العمل بعد أن حصل المقصود، وظهر الكتاب للوجود، لينتفع به الناس.

فالإمام الشافعي (٢٠٤ هـ) رحمه الله كتب في الفقه كتاب «الأم»، وجاء تلميذه المُزَني (٢٦٤ هـ) فاختصر كتاب الأم في «مختصر المزني»، فجاء إمام الحرمين (٤٧٨ هـ) وشرح مختصر المزني في كتاب «نهاية المطلب»، وجاء تلميذه الغزالي (٥٠٥ هـ) فاختصر النهاية في كتابه «البسيط»، ثم اختصر الغزالي نفسه البسيط في «الوسيط»، ثم اختصر الوسيط في «الوجيز»، ثم اختصر الوجيز في «الخلاصة»، وجاء الرافعي (٦٢٣ هـ)، وهو محقق المذهب، فاختصر الوجيز في كتابه «المحرَّر»، ثم اختصر الإمام النووي (٦٧٦ هـ)، وهو المحقق الثاني للمذهب، كتاب المحرَّر في كتابه «المنهاج» وهو الكتاب المختصر المعتمد عند الشافعية، كما أن الرافعي شرح الوجيز للغزالي في كتابه المشهور «فتح العزيز»، وجاء النووي أيضاً واختصر فتح العزيز إلى «روضة الطالبين» في اثني عشر جزءاً، وهو الكتاب المعتمد أيضاً في المذهب، وطبع كاملاً في دمشق[1].

فالوسيط للغزالي حاز قصب السبق في كتبه، وانتشر بين أيدي الطلاب والعلماء، واشتغل به الناس في الدراسة

(١) انظر: «الفوائد المكية» للسيد علوي السقاف ص ٣٥ وما بعدها، «المذهب عند الشافعية»، مقال للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، في مجلة جامعة الملك عبد العزيز، بالسعودية، العدد الثاني، ص ٢٥.

والتدريس، يقول الإمام النووي رحمه الله عند عرضه لكتب المذهب الشافعي: (واشتهر منها لتدريس المدرسين، وبحث المشتغلين: «المهذَّب» للشيرازي، و«الوسيط» للغزالي، وقد وفّر الله الكريم دواعي العلماء من أصحابنا رحمهم الله على الاشتغال بهذين الكتابين، وما ذلك إلا لجلالتهما، وعظم فائدتهما، وحسن نية ذَيْنك الإمامين، وفي هذين الكتابين دروس المدرِّسين، وبحث المحصّلين المحققين، وحفظ الطلاب المعتنين فيما مضى، وفي هذه الأعصار، وفي جميع النواحي والأمصار)(١).

وقال ملا كاتب جلبي عن «الوسيط في الفروع»: (وهو ملخص من بسيطه، مع زيادات، وهو أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية التي يعوَّل عليها، كما ذكره النووي في تهذيبه)(٢)، ثم ذكر أهم الشروح والمختصرات التي انطلقت من «الوسيط» وعدد منها سبعة عشر شرحاً ومختصراً(٣)، ويضاف إليها كتاب القاضي البيضاوي القيم المفيد «الغاية القصوى في دراية الفتوى».

---

(١) «المجموع» للنووي ٦/١.

(٢) «كشف الظنون» ٦٣٣/٢، وانظر: «تهذيب الأسماء» ٣/١، «بحث: الغزالي الفقيه، وكتابه الوجيز» للمؤلف، مقال منشور في مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٢٢ ص ٧٩.

(٣) «كشف الظنون» ٦٣٣/٢.

وهكذا يظهر أن «الغاية القصوى» اختصار لأحد كتب المذهب وأهمها، في سلسلة الفقه الشافعي، وأن «الغاية» اختصار للوسيط، بعبارة دقيقة، وأسلوب محكم، وجمل سليمة، ولغة فصحى، واختيار للألفاظ الجميلة، وبيان الأقوال الراجحة، والآراء المعتمدة في المذهب، مع الأدلة والتعليل والإشارة أحياناً إلى المقارنة مع المذهب الحنفي والمذهب المالكي، ومع الاعتماد على القواعد الفقهية، والمناهج الأصولية، والمناقشة المنطقية الهادئة المتزنة، والأدب الجم مع أئمة المذاهب، ويسميه كثير من العلماء بـ «مختصر الوسيط».

والكتاب أنموذج فريد لكتاب فقهي معاصر، يبين الأحكام الشرعية باختصار مع الأدلة، وفوق كل ذلك يتميَّز بالترتيب وحسن التبويب، فقد قسم الكتاب إلى عدة كتب، وكل كتاب بحثه في عدة أبواب، وعرض الباب في عدة فصول، ويضيف المؤلف إلى ذلك عناوين جانبية إضافية: كالمسألة والفرع والفائدة والتذنيب والخاتمة، مع العناوين الأساسية للكتاب والباب والفصل[1].

(١) يتضمن كتاب «الغاية القصوى» ستين كتاباً، موزعاً على ١٤٨ باباً، مرتباً على ١٥٥ فصلاً، مقسماً إلى ٤٧٥ مسألة، و٥٣٦ فرعاً، و٣١ تنبيهاً، و٦ تذنيبات، و١٦ مبحثاً، و٥ خواتيم، بالإضافة إلى مئات القواعد الفقهية والمسائل الأصولية المبثوثة فيه. («الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٧).

منهـج البيضاوي في الكتـاب:

بدأ الامام البيضاوي كتابه بمقدِّمة عن أهمية الفقه، فقال: (وإن علم الفقه مما لا يخفى جلالةُ قدره، ونباهةُ ذكره، فإنه الكـاشف عن حقيقــة الإِســلام، والمُــطْلع على حِكَم الأحكـام)[١]، ثم ذكر أن من جملة مـا أُلِّف فيـه كتـاب «الوسيط» للغزالي، وأنه يقصد اختصاره.

وبيَّن البيضاوي منهجه فيه فقال: (فصرفت عنان همّتي إلى أن أختصره، وأجرِّد درره، وأبيِّن علل أصوله، ومأخذ فروعه، وأنبِّه على القول المختار بأن الأصح كذا، وعلى الوجه المرجَّح المنقاس بأن الأظهر ذا، وأتعرَّض لجهة ترجيح ما خفي أمره، ووجب سَبْره، تبصرةً لمن تبصَّرَ، وتذكرة لمن أراد أن يذَّكر)[٢].

وينبه البيضاوي في منهجه هذا أنه يستعمل مصطلحات فقهية معينة، كـالأصح للدلالـة على القول الـذي اختاره أصحاب الشافعي أو بعضهم من بين قولي الشافعي أو أقواله، والأظهر للدلالة على الـوجه الـراجح من وجـوه أصحاب الشافعي، وفي هذا مخالفة لاستعمال المصطلحات الفقهية

---

(١) «الغاية القصوى» ١/١٧٣.

(٢) «الغاية القصوى» ١/١٧٤، وانظر تفصيل عمل البيضاوي وأهمية منهجه وأسلوبه في مقدمة التحقيق ١/١٢٥ وما بعدها.

التي سار عليها الإمام النووي (٦٧٦ هـ) المعاصر له، وشاعت وانتشرت في معظم كتب الشافعية(١).

ثم ينتقل البيضاوي بعد المقدمة إلى صدر الكتاب، فذكر فيه خمس مقدمات مهمة، فعرف الفقه بأنه (العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسبُ من أدلتها التفصيلية)، ثم عرف الحكم الشرعي فقال: (الحكم خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير)، وهو نفس التعريف الذي ذكره البيضاوي في «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول»، وبيّن مصادر الفقه، وأنها ترجع إلى أربعة أصول، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وشرح كلًّا منها باختصار، ثم عرّج على فضل الفقه وأهميته، مبيِّناً أن شرف العلوم بشرف المعلوم، ووثاقه الدليل، وشدة الحاجة إليه، ثم اشترط في الفقيه أن يعلم آراء المجتهدين وأقاويل المتقدمين عن طريق النقل والرواية، وهنا وضح البيضاوي مأخذه في الفقه عمن سبقه بالسند المتصل إلى الإمام الشافعي ثم إلى النبي ﷺ(٢).

ثم ابتدأ الأحكام الفقهية بكتاب الطهارة، فالتيمم،

---

(١) انظر: «مغني المحتاج على المنهاج» ١/١٢، وانظر بقية مصطلحات البيضاوي في «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/١١٠.
(٢) انظر: «الغاية القصوى» ١/١٧٦ ـ ١٨٤، وانظر: «منهاج الوصول» ص ٥.

فالحيض، فالصلاة، فالجنائز، فالزكاة، فالصيام، فالاعتكاف، فالحج، فالبيع...، إلى أن وصل إلى كتاب العِتق مارّاً بجميع أبوابه الفقه.

مكانة كتاب «الغاية القصوى»:

حدّد المؤلف رحمه الله أهمية الكتاب ومكانته بأنه يعتمد عليه المفتي والقاضي، فقال: (يرجع إليه من يتَّسِم بسمة الإفتاء، ويعتمد عليه من يتسنَّم أسنمة القضاء)[(١)].

ويتبوّأ كتاب «الغاية القصوى» الدرجة العليا في هذا المجال، وقد انتشر الكتاب في حياة المؤلف، وذاع صيته بعد وفاته، ويظهر ذلك من تاريخ النسخ الخطية الموجودة الآن، ومكانها، وأسماء المالكين، وأنها نسخت من نسخ أخرى في بغداد والقدس وجدة والقاهرة في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن، وانتقل الكتاب من شيراز وتبريز إلى العراق والشام والحجاز ومصر، وقام العلماء بشرحه في وقت مبكر[(٢)].

ولكن الكتاب لم ينتشر بين الطلاب والعلماء عامة، ولم يتصدر مجالس العلم والتدريس، كما حصل لكتابَي البيضاوي «المنهاج» في أصول الفقه، و«أنوار التنزيل» في

---

(١) «الغاية القصوى» ١/١٧٥.

(٢) انظر: «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/١٠٠، ١٠٦، ١٣٩.

تفسير القرآن الكـريم، ولعل السبب في ذلـك أن الإمام النووي رحمه الله كان معاصراً للبيضاوي في القرن السابع، وبلغ النووي رتبة المحقق والمرجح في المذهب، والمدقق لأقواله، والمنقح لكتبه، واستفاد من الجهود السابقة للإمام الرافعي في تحقيق المذهب وتنقيح الأقوال في سلسلة كتب الغزالي، ثم تابع النووي الطريق، وصنف كتبه التي سارت بها الركبان، وانصبت بها جهود السابقين، والتفّ حـولها المسلمـون في أرجاء المعمـورة، وهي «منهاج الـطالبين» مختصراً، و«الروضة»، و«المجموع» وغيـرها، وأصبحت هذه الكتب هي المعتمدة في المذهب للفتوى والقضاء، وتناولها العلماء بالشروح والحواشي، فلم يفسـح المجال لكتاب البيضاوي وغيره ليأخذ نصيبه في دُور العلم ومعاهده، ولكنه بقي مرجعاً معتبراً ومصدراً موثوقاً، وغاية مطلوبة[1].

شـروح الغايـة القصـوى:

قال حاجي خليفة: (وهو ـ أي الغاية القصوى ـ كتاب معتبر، اعتنى عليه الفقهاء فشرحوه)[2]، وتسارع العلماء إلى

(١) انظر تعقيب ابن السبكي على إحدى مسائل «الغاية القصوى» وتصرّف البيضاوي بهـا عن «الوسيط» في («طبقـات الشافعيـة الكبرى» ١٥٨/٨ هامش من الطبقات الوسطى).

(٢) «كشف الظنون» ١٤٨/٢، وانظر: «الغاية القصوى» ـ المقـدمة ١٣٩/١.

شرحه حتى في حياة المؤلف، أو بعد وفاته بفترة وجيزة، كما حصل في بقية كتب البيضاوي، وهذه بعض شروح «الغاية القصوى» التي أمكننا التعرف عليها:

١ - «شرح الغاية القصوى في دراية الفتوى»:
للعلامة غياث الدين محمد بن محمد الواسطي الأقسرائي، المتوفى سنة ٧٢١ هـ[١].

٢ - «شرح الغاية القصوى في دراية الفتوى»:
للعلامة بدر الدين محمد بن أسعد التُسْتُري، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ، وتوجد من هذا الشرح نسخة في مكتبة طوب قابي بتركيا[٢].

٣ - «شرح الغاية القصوى»:
للعالم العلامة برهان الدين عبيد الله بن محمد الفرغاني الهاشمي الحسيني، الملقب بالعِبري، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ، وقيل سنة ٧٤٢ هـ، وكان قاضياً بتبريز، وشرح مصنفات البيضاوي «الغاية القصوى» في الفقه، و«المنهاج» في أصول الفقه، و«مصباح الأرواح» في أصول الدين، وتوجد نسخة من شرحه على «الغاية القصوى» في مكتبة طوب قابي بتركيا[٣].

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/١٤٨، «الدرر الكامنة» ٤/٢٨١.

(٢) انظر: «الغاية القصوى» ١/١٤٠، «الدرر الكامنة» ٤/٣.

(٣) انظر: «البدر الطالع» ١/٤١١، «الدرر الكامنة» ٣/٤٧، «الأعلام» =

٤ ـ «النهاية العظمى في شرح الغاية القصوى»:

للعلّامة جمال الدين محمد بن محمد بن زنكي الإسفراييني، المتوفى سنة ٧٧١ هـ، وتوجد من هذا الشرح نسخة في مكتبة السليمانية بكردستان العراق[١].

٥ ـ «شرح الغاية القصوى»:

للعلامة ابن العاقولي محمد، المتوفى سنة ٧٩٧ هـ[٢].

٦ ـ «شرح الغاية القصوى»:

للعلامة القاضي شرف الدين موسى بن محمد الشهير بابن جمعة، المتوفى سنة ٨٠٣ هـ[٣].

وأخيراً فقد اهتم العلماء بنظم «الغاية القصوى» ونظمه جماعة، منهم العلامة أبو عبد الله محمد بن الظهيري الشافعي، وسمى نظمه «الكفاية في نظم الغاية»[٤].

وقام الأستاذ علي محيي الدين علي القره داغي بتحقيق كتاب «الغاية القصوى» وتخريج أحاديثه، والمقابلة بين النسخ

= ٤/ ٢٧١، «كشف الظنون» ٢/ ١٤٨، وقارن ما جاء في مقدمة تحقيق «الغاية القصوى» ١/ ١٤١، ١٤٢.

(١) انظر: «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/ ١٤١.

(٢) انظر: «إيضاح المكنون» ٢/ ١٤٠، «الغاية القصوى» ١/ ١٤٢.

(٣) انظر: «إيضاح المكنون» ٢/ ١٤٠، «الغاية القصوى» ١/ ١٤٢.

(٤) انظر: «الغاية القصوى» ١/ ١٤٢.

الخطية الستة منه، والتعليق عليه، وترجم للأعلام، وبذل فيه جهداً طيباً مباركاً وأخرجه بحلة قشيبة، وطبعه ونشره للاستفادة منه، فجزاه الله خيراً، وبارك الله فيه، ونفع بعلمه.

نصوص من الغاية القصوى:

قال القاضي البيضاوي في كتاب الحيض: (الفصل الثاني في أحكامه: يحرمُ به إلى الغسل ما يحرمُ بالجنابة، والعبور في المسجد لخوف التلويث، قيل: وإن أُمِنت، إذ ربما يغلب، والاستمتاعُ بما بين السرة والرُّكبة، لقول أم سلمة: «نال مني ما ينال الرجل من امرأته إلا ما تحت الإزار»، وقيل: الجماعُ وحده، لقوله عليه السلام: «افعلوا كل شيء سوى الجماع»، وعورض بما سأل معاذ عما يحلُّ من الحائض؟ فقال عليه السلام: «ما فوق الإزار»، والمحرِّمُ راجح، وقال أبو حنيفة: إن انقطع للأكثر جاز الوطء قبل الغسل للتيقن، لنا قوله تعالى: ﴿ فإذا تطهَّرْنَ ﴾، فإن فعل تصدَّق بدينار ندباً، وبنصفه آخِراً، للحديث، والصومُ إلى الطهر، ويجب قضاؤه، لقول عائشة: «كنا نحيض عند رسول الله فيأمرنا بقضاء الصوم، ولا يأمرنا بقضاء الصلاة»)(١).

وقال القاضي البيضاوي في كتاب الزكاة: (الفصل الثاني

---

(١) «الغاية القصوى» ١/٢٥٣.

في الصدقات، وفيه مسائل: الأولى: تحل الصدقة على الهاشمي والمطلبي، وكان النبي ﷺ لا يقبلها، فاختلف في أنه كان ترفعاً أو تورعاً، الثانية: الأَوْلى التصدّق على الأقارب والجيران والإخفاء به، قال عليه السلام: «الصدقة على القرابة صدقة وصلة»، وقال: «صلة الرحم تزيد في العمر، وصدقة السر تطفىء غضب الرب»، وقال لامرأة ابن مسعود: «لَزوجُكِ وولدكِ أحق مَنْ تصدقتِ عليهم»، واستحب إكثاره في رمضان، قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان»)[1].

وقال البيضاوي رحمه الله في كتاب الوصايا: (الوصية تبرع يضاف إلى ما بعد الموت، كانت واجبة، لقوله تعالى: ﴿ كُتب عليكم إذا حضر أحَدَكم الموتُ... ﴾ الآية، فنُسخت بآية المواريث، والآن جائزة في الثلث، لأنه عليه السلام: «عاد سعد بن أبي وقاص، فقال: أأوصي بجميع مالي؟ فقال: لا، فقال: بثلثي مالي؟ فقال: لا، فقال: بالشطر؟ فقال: لا، فقال: بالثلث؟ فقال: الثلث والثلث كثير، لأن تَدَعَ ورثتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكفّفون وجوه الناس»، وقال عليه السلام: «ما حق امرىء مسلم عنده شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»)[2].

---

(١) «الغاية القصوى» ١/٤٠٠.

(٢) المرجع السابق ٢/٦٩٥.

وقال البيضاوي في وجوب المتعة للمطلقة: (الفصل الثالث: في المتعة، قال الله تعالى: ﴿ومتِّعوهن على الموسر قَدَرُه، وعلى المُقْتر قدَرُه﴾ وهي واجبة عندنا، سنة عند مالك بفراق لا يكون مشطراً، ولا مسبباً عنها، لطلاق المفوَّضَةَ قبل الفرض، والمدخول بها على الجديد، لعموم قوله تعالى: ﴿وللمطلَّقاتِ متاع بالمعروف﴾، ولأن المهر في مقابلة البُضع، فلها المتعة جبراً لإيحاشها بالطلاق، ثم إن اتفقا على شيء فذاك، وإن اختلفا قدَّر القاضي ما يليق بهما على الأظهر، والأحب أن لا ينقص عن ثلاثين درهماً، ولا يزيد الحاكم على نصف مهر المثل على الأظهر كالفرض، وينقص عنه إن كان مدخولاً بها، وقال أبو حنيفة: ينقص مطلقاً)[1].

ويظهر من هذه النصوص أسلوب البيضاوي الدقيق، وعبارته المحكمة، واستخدامه لاصطلاحات الفقه الشافعي، وبيان القول الراجح، واعتماده على الاستدلال بالقرآن والسنة، وتعليل الأحكام بالحكمة والأدلة العقلية، والمقارنة أحياناً مع المذهب الحنفي.

---

(١) «الغاية القصوى» ٧٦٢/٢. والمتعة هي المال الذي يدفعه الرجل إلى امرأته لفراق في الحياة كالطلاق.

الفصل الثاني
البيضاويّ أصوليًا

يشكل علم أصول الفقه المنارة الوضّاءة بين العلوم الشرعية، ويعتبر مفخرة الأمة في حضارتها وعلومها، وهو مما انفرد به المسلمون في التاريخ، ذلك أنه عبارة عن القواعد والمبادىء التي سار عليها الفقهاء في استنباط الأحكام، وبيانها للناس، وأنه يتكوّن من الضوابط التي يلتزم بها الفقيه أو المجتهد، بقصد أن يكون طريقه مستقيماً واضحاً، لا يعتريه وهن أو انحراف، ولا خبط أو اضطراب، كما أن هذا العلم هو المصباح الذي ورثته الأجيال، وحمله العلماء لبيان الأحكام الشرعية في كل جديد، ومعالجة المشاكل التي تطرأ، وغير ذلك، وفق منهج محدد، يسير عليه العالم في الاستنباط والاجتهاد.

وعرف البيضاوي أصول الفقه بأنه (معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد)[1].

---

(١) «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول» ص ٣.

وهذا من أشهر التعريفات التي تناقلها العلماء، وكتبوها في مصنفات الدراسة والتدريس، ويعني أنه العلم الذي يكسب صاحبه معرفة بمصادر التشريع الإسلامي، وكيفية الاستفادة منها في استخراج الأحكام الشرعية، واستنباط الأقوال والآراء، ويبيِّن له الدليل الصحيح الراجح عند التعارض الظاهري، ويرشده إلى شرائط الاجتهاد ليسعى لتحصيلها، ويعينه على طرق الاستدلال ليستنير بها على ضوء الكتاب والسنة ومبادىء اللغة العربية.

وذكر ابن خلدون أهمية أصول الفقه، فقال: (اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية، وأجلها قدراً، وأكثرها فائدة)، ثم عرّفه فقال: (وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام)[1].

وعرف أكثر العلماء أصول الفقه بأنه (العلم بالقواعد الكلية التي يُتوصَّل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية)[2]، أي هو العلم الذي يضع في يد الباحث القواعد الكلية، والضوابط الصحيحة، التي يستطيع المجتهد بواسطتها أن يعرف الأحكام الشرعية العملية المعروفة بالفقه والأحكام الفقهية، ويستخرجها من مصادرها المعتمدة، ليرشد الناس إليها.

---

(١) «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٥٢.

(٢) انظر: «فواتح الرَّحَمُوت» ١/ ١٤، «شرح الكوكب المنير» ١/ ٤٤.

وكانت البواعث لظهور علم أصول الفقه كثيرة ومتنوعة، وهي بواعث طيبة، وتهدف إلى غايات سامية، ومقاصد نبيلة، وتحقق أهدافاً كثيراً يمكن معرفتها في كتب أصول الفقه[1].

وقد لمع نجم أصولِ الفقه في القرن السابع الهجري، وصارت الكتب التي صُنِّفت في هذا القرن في أصول الفقه نقطة ارتكاز من جهة، ونقطة تحول متميِّزة بين ما سبقها وما لحقها من جهة أخرى، وظهر في هذا القرن أشهر علماء الأصول الأعلام، كالإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ)، وأهم كتبه الأصولية «المحصول»، والتبريزي (٦٢١ هـ) وله «التنقيح» اختصر به محصول الرازي في أصول الفقه، وسيف الدين الآمدي (٦٣١ هـ) وأهم كتبه في أصول الفقه: «الإحكام في أصول الأحكام»، وابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وله في أصول الفقه: «مختصر منتهى السؤل والأمل»، (وهو مختصر غريب في صنعه، بديع في فنه، غاية في الإيجاز، يحكي بحسن إيراده الإعجاز، اعتنى بشأنه العلماء الأعلام في سائر الأقطار، وهو كتاب الناس شرقاً وغرباً)[2]، والقرافي (٦٨٤ هـ) وله مؤلفات عديدة في أصول الفقه، أهمها «التنقيح» و«شرح التنقيح»، والقاضي البيضاوي (٦٨٥ هـ)،

---

(١) انظر: «أصول الفقه الإسلامي» للمؤلف ص ٢١ وما بعدها، «الإمام الجويني» للمؤلف ص ١٦١ وما بعدها.

(٢) «الفتح المبين» ٢/٦٦، وانظر: نفس المرجع ٢/٤٤ ـ ٤٩.

وشمس الدين الأصفهاني العجلي (٦٨٨ هـ) الذي شرح المحصول للرازي، وابن الساعاتي (٦٩٤ هـ)، وله كتاب «بديع النظام» الذي جمع فيه بين كتاب «الإحكام» للآمدي الشافعي، وأصول البرذوي الحنفي.

وكان للقاضي البيضاوي مكانة عظيمة في هذه النهضة المباركة لعلم أصول الفقه في هذا القرن، بل يعتبر البيضاوي وابن الحاجب الحوض الذي انصبت فيه الجهود المبذولة في الأصول، فجمعوها، ثم نقّحوها، ثم صاغها كل منهما في مختصره المشهور، الذي دار حوله هذا العلم عدة قرون، واعتمد في الدراسة والتدريس، حتى وقتنا الحاضر[1].

كتب البيضاوي الأصولية:

يُعتبر البيضاوي من أعلام أصول الفقه عن جدارة واستحقاق، لأنه درس هذا العلم العظيم، وأتقنه، وهضم ما كُتب فيه، ثم تابع الطريق ليعطي الثمار اليانعة، والمحصول المبارك فيه، وصنّف عدة كتب في أصول الفقه، وهذه الكتب متنوعة، بعضها اختصار لكتب غيره، وبعضها شرح لأهم مختصرات هذا العلم، وكان رحمه الله يشير في

(١) لقد وصل إلى علمي أن الدكتور جلال الدين عبد الرحمن اختار هذا البحث موضوعاً لرسالة الدكتوراه في جامعة الأزهر، كلية الشريعة، قسم أصول الفقه، بعنوان: «القاضي ناصر الدين البيضاوي، وأثره في أصول الفقه» ولم أطلع عليها.

كتبه الفقهية إلى كتبه الأصولية، فيقول مثلاً: (كما بيّنا في كتبنا الأصولية)[1].

وذكرت معظم كتب التراجم والتاريخ مصنفات البيضاوي في أصول الفقه، ولكن ضنّت علينا الأيام بأكثرها، ولم يبق في التداول والانتشار وحلقات الدرس والعلم إلا أصغرها وأهمها، وهو «المنهاج»، وهذه الكتب هي:

١ - «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول»، ويعرف اختصاراً بالمنهاج.

٢ - «شرح منهاج الوصول»[2].

٣ - «شرح المنتخب في أصول الفقه»، للإمام فخر الدين الرازي، الذي انتخبه من كتابه «المحصول»[3].

---

(١) «الغاية القصوى» ١/٥٥٨، وبيَّن البيضاوي هذه المسألة التي أشار إليها في «المنهاج» مع شرحه نهاية السول وحاشية الشيخ محمد بخيت ٢/٤١٠.

(٢) انظر: «بغية الوعاة» ٢/٥١، «نهاية السول» - المقدمة ١/د، «روضات الجنات» ص ٤٥٤، «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣، «الوافي بالوفيات» ١٧/٣٧٩، «الفتح المبين» ٢/٨٨، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٥، «حاشية الشهاب الخفاجي» ١/٤.

(٣) انظر: «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣، «البداية والنهاية» ١٣/٣٠٩، «إيضاح المكنون» ٢/٥٦٩، «حاشية الشهاب الخفاجي» ١/٤، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٥، «بغية الوعاة» ٢/٥١.

وانظر الكلام عن كتاب «المنتخب» وما يقال حوله، وتحقيق نسبته للرازي في (المحصول ١/١/٥١ وما بعدها).

٤ ـ «مرصاد الأفهامُ إلى مبادىء الأحكام»، وهو شرح «مختصر ابن الحاجب» المشهور، وعنوانه: «مختصر منتهى السؤل والأمل إلى عِلْمَي الأصول والجدل»[(١)].

٥ ـ «شرح المحصول» للإمام فخر الدين الرازي[(٢)].

وأكثر هذه الكتب انتشاراً وشيوعاً وتداولاً في أروقة العلم، واعتماداً عليه في تناول علم أصول الفقه ودراسته وشرحه والتعليق عليه، وحفظه واقتباس التعريفات والأحكام منه، هو كتاب «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول»، وسوف نفرده بالدراسة والبيان، وأما بقية كتبه فلا نعرف عنها شيئاً.

«منهاج الوصول»:

هذا الكتاب مختصر في علم أصول الفقه، وتوجد منه نسخ خطية في معظم مكتبات العالم، وطُبع مراراً مع

---

(١) انظر: «بغية الوعاة» ٢/٥١، «كشف الظنون» ٢/٥٣٨، «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣، «الوافي بالوفيات» ١٧/٣٧٩، «حاشية الخفاجي» ١/٤، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٥، «الفتح المبين» ٢/٨٨.

(٢) انظر: «البداية والنهاية» ١٣/٣٠٩، «الغاية القصوى» ١/٧٩، والمراجع السابقة «بغية الوعاة»، و«كشف الظنون»، و«طبقات المفسرين»، و«نهاية السول».

شروحه، وكان مقرَّراً للتدريس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر مع شرح الإسنوي «نهاية السول» وطبع بشكل مستقل عدة مرات، منها طبعة محمد علي صبيح بالقاهرة سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م بمطبعة السعادة، مع ضبطه وتحقيقه من العلامة محمد محيـي الدين عبد الحميد، ويقع في ١٢٤ صفحة من الحجم الوسط.

والكتاب حلقة أساسية في سلسلة كتب أصول الفقه منذ عصر الشافعي رحمه الله تعالى ـ الذي صنف أول كتاب في علم أصول الفقه، وكان أول من قام بتدوين أصول الفقه ـ وحتى وقتنا الحاضر.

وهذه السلسلة في أصول الفقه تبدأ من «الرسالة» للإمام الشافعي، التي كانت المنارة الباسقة لدعوة العلماء للتأليف والكتابة، والتصنيف في علم أصول الفقه، وكانت حجر الأساس في بناء صرح هذا العلم، فشمّر العلماء والأئمة عن ساعد الجدّ، وحرّروا المصنفات، وأكملوا البناء الذي أقام أساسه الإمام الشافعي، وتنوّعت الطرق في تصنيف علم أصول الفقه، وكان من أهم الكتب التي أُلِّفت على طريقة الشافعية أو المتكلمين ثلاثة، وهي: المعتمد لأبي الحسين البصـري (٤٦٣ هـ)، والبرهـان لإمام الحـرمين الجـويني (٤٧٨ هـ)، والمستصفى لأبي حامد الغزالي (٥٠٥ هـ)، فجاء الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) فجمع الكتب الثلاثة

السابقة ولخّصها، وأحاط بكل ما كُتب قبله[1]، وصاغ هذا العلم صياغة محكمة دقيقة، مع المقارنة والمناقشة، وصنف كتابه الكبير المشهور «المحصول في علم الأصول» الذي بلغ القمة والأوج، وكان يعتبر ثورة في علم الأصول.

وكان الإمام الرازي رحمه الله قد ملأ الدنيا بعلمه، وشغل الناس بمكانته وتصانيفه، ومنها «المحصول» الذي جمع فيه مزايا الكتب التي سبقته، وأحاط بمباحثها، وتجنب المآخذ التي وردت عليها، وتعقب أقوالهم، واستدرك الكثير عليهم، وصاغ أصول الفقه وقواعده في أسلوب حسن، وعبارة محكمة، وتعبير دقيق، وأفاض عليها من علمه الغزير، وعقله الواسع العميق، حتى تبوأ «المحصول» ذروة علم الأصول، وقصده العلماء في جميع الأرجاء بالدراسة والاستفادة منه، واختصاره وشرحه[2].

وممن اختصر «المحصول» تاج الدين أبو عبد الله محمد

---

(١) انظر: «أصول الفقه الإسلامي» للمؤلف ص ٥١.

(٢) لقد حقق المحصول، وأخرجه للوجود، الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني في ستة مجلدات، وطبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، انظر مقدمة «المحصول» ١/١/٢٨ ـ ٤٠، وانظر ترجمة الرازي في («طبقات الشافعية الكبرى» ٨/٨١، والمراجع المشار إليها بالهامش)، وانظر شروح «المحصول» في (كشف الظنون ٢/٣٩٣).

ابن الحسين الأُرموي المتوفى سنة (٦٥٦ هـ) في كتابه «الحاصل من المحصول»[١].

وجاء القاضي البيضاوي فاختصر «الحاصل» في كتابه «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول»[٢]، بعبارة دقيقة، واختصار محكم، حتى صار متناً معتمداً في الأصول، يحفظه الطلاب والعلماء عن ظهر غيب، ثم وضعوه للتدريس، وتناولوه بالشروح.

قال الإسنوي: (اعلم أن المصنف أخذ كتابه من «الحاصل» للأرموي، و«الحاصل» أخذه مصنفه من «المحصول» للرازي، و«المحصول» استمداده من كتابين، لا يكاد يخرج عنهما غالباً، أحدهما: المستصفى للغزالي، والثاني: المعتمد لأبي الحسين البصري..، وسببه على ما قيل أنه كان يحفظهما)[٣].

وقال الإسنوي عن «المنهاج»: (ثم إن أكثر المشتغلين في هذا الزمان قد اقتصروا من كتب [الأصول] على «المنهاج» للإمام قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي رضي الله عنه

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/٣٩٣.

(٢) هذا الكتاب طبع بهذا العنوان، بينما ورد اسمه في مقدمته «منهاج الوصول إلى علم الأصول».

(٣) «نهاية السول» ١/٤.

لكونه صغير الحجم، كثير العلم، مستعذب اللفظ، وكنت أيضاً ممن لازمه درساً وتدريساً)[١].

وقال ابن كثير: (ومن مصنفاته: المنهاج في أصول الفقه، وهو مشهور، وقد شرحه غير واحد)[٢].

ونقل ابن العماد عن ابن حبيب قال: (تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيز لفظه، المحرر، لكفاه)[٣].

وقال المراغي: (وهو كتاب تناوله العلماء بالشرح والتعليق، وانتفع به الطلاب والعلماء)[٤].

ونلاحظ أن أول من شرح «المنهاج» مؤلفه القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى، كما أنه شرح أصل أصله، وهو المحصول، وصاحب البيت أعرف به من غيره، وأهل مكة أدرى بشعابها.

خطة البيضاوي في المنهاج:

بدأ البيضاوي كتابه القيم المختصر «المنهاج» بتقديم من صفحة واحدة، مبيناً فيها تقديس الله تعالى وتنزيهه، والصلاة

---

(١) المرجع السابق ١/٢.

(٢) «البداية والنهاية» ١٣/٣٠٩.

(٣) «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢.

(٤) «الفتح المبين» ٢/٨٨.

على نبيه ﷺ وصحبه، ثم بين أهمية العلوم الدينية، واسم كتابه، وطريقته به.

ثم عرّف علم أصول الفقه تعريفاً لقبياً باعتباره حقيقة عرفية، دون النظر إلى أجزائه المركَّب منها، فقال: (أصول الفقه: معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد)[1].

وشرح البيضاوي التعريف شرحاً موجزاً ثم بيّن خطته في الكتاب، فقال: (رتّبناه على مقدمة وسبعة كتب). ففي المقدمة شرح الأحكام الشرعية، ومتعلقاتها، وفيما لا بد للحكم منه، كالحاكم، وهو الله تعالى، والمحكوم عليه، وهو المكلف، والمحكوم به، وهو فعل المكلَّف، وذلك في بابين.

وفي الكتاب الأول بحث المؤلف المصدر الأول للتشريع وهو الكتاب الكريم، وتكلم فيه على دلالات الألفاظ، فبيَّن الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والمطلَق والمقيَّد، والمجمل والمبيَّن، وقسم هذا الكتاب إلى خمسة أبواب، وقسم الأبواب إلى فصول، وعرض تقسيم الألفاظ، والاشتقاق والترادف، والاشتراك والتعارض، وكيفية الاستدلال بالألفاظ، والأوامر والنواهي، والناسخ والمنسوخ.

(١) «منهاج الوصول» ص ٤.

وفي الكتاب الثاني بحث السُّنة في بابين، الأول في أفعاله عليه الصلاة والسلام، والثاني في الأخبار، وفيه ثلاثة فصول.

وتحدث في الكتاب الثالث عن الإجماع، فبيَّن حجِّيَّته، وأنواعه، وشرطه، في ثلاثة أبواب.

وعرض في الكتاب الرابع القياس في بابين، فذكر حجيته، وأركانه، وتوسَّع في الكلام عن العلة فذكر الطرق الدالة على العِلِّيَّة، وفيما يبطل العِلِّيَّة، وأقسام العلة.

وفي الكتاب الخامس تناول الأدلة المختلف فيها، وقسمها إلى قسمين، الباب الأول في الأدلة المقبولة، وهي الإباحة الأصلية، والاستصحاب، والاستقراء، وأقل ما قيل، والمناسب المرسل، وفقد الدليل، والباب الثاني في الأدلة المردودة، وهي الاستحسان وقول الصحابي.

وفي الكتاب السادس تكلم عن التعارض والترجيح في أربعة أبواب، الأول في تعادل الأمارتين، والباب الثاني في الأحكام الكلية للترجيح، والثالث في ترجيح الأخبار، والرابع في ترجيح الأقيسة.

وأما الكتاب السابع والأخير فخصصه للاجتهاد والإفتاء في بابين، فعرّف الاجتهاد، وبيّن شروط المجتهد، وحكم الاجتهاد، ومسائل الإفتاء.

وختم المنهاج بسطر واحد، فقال: (وليكن هذا آخر

كلامنا، والله الموفق والهادي للرشاد)[1].

وهذه الخطة شملت جميع موضوعات علم أصول الفقه التي يتعرض لها العلماء في المصنفات الأصولية، المطوَّلة والمختصرة.

طريقة البيضاوي في «المنهاج»:

عرض البيضاوي مسائل أصول الفقه بأسلوب مختصر، وعبارة مسبوكة، وكلام دقيق، وجمع بين المنقول والمعقول، كما قال في تقديمه: (وإن كتابنا هذا «منهاج الوصول إلى علم الأصول» الجامع بين المعقول والمشروع، والمتوسط بين الأصول والفروع، وهو - وإن صغُر حجمُه - كبُر علمه، وكثرت فوائده، وجلَّت عوائده، جمعته رجاء أن يكون سبباً لرشاد المستفيدين، ونجاتي يوم الدين)[2].

ويسير البيضاوي على طريقة المتكلِّمين، أو طريقة الشافعية في كتابة أصول الفقه، فيبيّن أوجه الخلاف، ويستدلّ للراجح، ويردّ على المخالف، ويعتمد في ذكر الشبهة، والرد عليها، على أسلوب علم الكلام، المعروف بالفنقلة، أي: فإن قلت كذا، قلنا كذا[3].

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١.

(٢) «منهاج الوصول» ص ٣.

(٣) انظر: «منهاج الوصول» ص ٢٩، ٣٧، ٤٤، «أصول الفقه الإسلامي» للمؤلف ص ٤٧ وما بعدها.

ويبدأ الكلام بذكر المصطلحات الأصولية، ويبيّن وزنها الصرفي، ومعناها اللغوي، ثم ينتقي التعريف الأصولي الدقيق، الواضح، المسبوك، ثم ينتقل إلى الأحكام الأصولية، وقواعد الاستنباط، وتقرير الآراء.

شروح «المنهاج» وحواشيه:

اعتنى العلماء قديماً وحديثاً بكتاب «المنهاج» للبيضاوي، فتصدى كثير منهم لشرحه، وكتب كثيرون الحواشي والتعليقات على الشروح، واستدرك عليه آخرون، ومنهم من قام بتخريج أحاديثه ولغاته، ومنهم من نظمه، ومنهم من كتب الزيادات في علم الأصول التي لم يتعرض لها «المنهاج»، وبلغت هذه الشروح والحواشي أكثر من خمسين كتاباً، طبع بعضها مرة ومرات، وتقررت في التدريس في المعاهد والجامعات، ويوجد نسخ خطية لكثير منها[1]، وسوف نذكر بعضها:

١ - شرح القاضي البيضاوي نفسه، وسبقت الإشارة إليه.

٢ - «معراج الوصول» للشيخ مجد الدين محمد بن أبي بكر الأيْكي الشيرازي الشافعي، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ،

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/٥٥٤ وما بعدها، «إيضاح المكنون» ٢/٥٩٠، «نهاية السول» - المقدمة ١/ي، «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٩، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٥، ١٩٢.

وهو شرح مختصر، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية.

٣ - شرح الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله ابن محمود الجزري، المتوفى سنة ٧١١ هـ، وهو أحد شيوخ تقي الدين السبكي، وتوجد نسخة من شرحه بدار الكتب المصرية.

٤ - «إيضاح الأسرار»، للإمام زين الدين الخنجي، وينقل عنه كثيراً السيد العِبري في شرحه.

٥ - شرح غياث الدين محمد بن محمد الواسطي، المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

٦ - شرح العلامة برهان الدين عبيد الله بن محمد الفرغاني العِبري، المتوفى سنة ٧٤٢ هـ، وهو من أحسن شروح «المنهاج» وأنفعها، ويوجد منه نسخة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية، وهو الذي شرح كتب البيضاوي في الفقه وأصول الفقه وأصول الدين، كما سبق.

٧ - شرح القاضي عبد الله بن محمد العبيدلي التبريزي الحنفي، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ.

٨ - «السراج الوهاج»، للشيخ الإمام فخر الدين أبي المكارم أحمد بن الحسن بن يوسف التبريزي الجاربردي الشافعي، المتوفى سنة ٧٤٦ هـ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية.

٩ - شرح شمس الدين أبي الثناء محمود بن عبد الرحمن

ابن أحمد الأصفهاني الشافعي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وهو شارح «الطوالع» للبيضاوي أيضاً.

١٠ - شرح ظهير الدين عبد الصمد بن محمود الفاروقي، فرغ منه في رجب سنة ٧٠٣ هـ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية.

١١ - شرح نور الدين فرج بن محمد بن أبي الفرج الأردبيلي، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، وهو تلميذ الفخر الجاربردي.

١٢ - شرح العلامة هارون بن عبد الولي بن عبد السلام المراغي، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ.

١٣ - «الإبهاج في شرح المنهاج»، للشيخ الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، المتوفى سنة ٧٥٦ هـ، ولم يتمه، فأكمله ولده القاضي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، المتوفى سنة ٧٧١ هـ، وهو شرح جليل القدر، طبع في ثلاثة أجزاء، ثم صُوِّر حديثاً في لبنان ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

١٤ - «نهاية السول في شرح منهاج الوصول»، للإمام جمال الدين أبي محمد عبد الرحيم الإسنوي، المتوفى سنة ٧٧٢ هـ، وهو شرح متوسط الحجم، توخى فيه الإيضاح والسهولة، وذكر فيه ما يرد عليه من الأسئلة، ونبه على ما وقع فيه المؤلف من الغلط في النقل

أحياناً، وبيّن مذهب الشافعي في الفروع والأصول، وأشار إلى المواضع التي خالف فيها البيضاوي إمام الحرمين الجُوَينيّ والآمـديّ وابن الحاجب، وطبـع هذا الشرح عدة مرات، وكان مقرراً للتدريس في كلية الشريعة بجامعة الأزهر.

وكتب على هذا الشرح عدة حواش وتعليقات، منها حاشية الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن جماعة، المتوفى سنة ٨١٩ هـ، وتعليقات لطيفة لشمس الدين محمد بن العماد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ، وحاشية أبي السعادات محمد بن محمد بن عبد الرحمن البلقيني المتوفى سنة ٨٨٩ هـ، وحاشية العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ، وسماها: «سلم الوصول إلى نهاية السول»، وطبعت هذه الحاشية مع الشرح بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ في أربع مجلدات، وصوِّرت حديثاً في بيروت ١٩٨٢ م.

١٥ ـ «كافي المحتاج»، للإمام سراج الدين عمر بن علي الشهير بابن الملقن الشافعي، المتوفى سنة ٨٠٤ هـ، وقد أكثر فيه من تخريج الفروع الفقهية على القواعد الأصولية، والشرح متوسط الحجم، وكان يوجد منه نسخة في مكتبة الشيخ محمد بَخِيت المُطِيعي.

١٦ ـ شرح الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله الغزي،

الشافعي، المتوفى سنة ٨٢٢ هـ.

١٧ ـ شرح الشيخ يوسف بن الحسن السراري التبريزي الشافعي، المتوفى سنة ٨٢٤ هـ.

١٨ ـ «التحرير لما في كتاب المنهاج من المعقول والمنقول»، للإمام ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي، المتوفى سنة ٨٢٦ هـ، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية.

١٩ ـ شرح العلامة محمد بن عبد القادر السخاوي المقري المعروف بابن السكاكيني، المتوفى سنة ٨٣٨ هـ.

٢٠ ـ شرح الإمام شهاب الدين أحمد بن الحسين بن علي ابن يوسف الرملي، المعروف بابن رسلان الشافعي، المتوفى سنة ٨٤٢ هـ، وهو شرح مطوَّل يقع في مجلدين.

٢١ ـ شرح العلامة شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن أبي بكر الإبشيطي، المتوفى سنة ٨٧٣ هـ.

٢٢ ـ الشرح الكبير، للإمام كمال الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إمام الكاملية الشافعي المتوفى سنة ٨٧٤هـ.

٢٣ ـ الشرح الصغير، للإمام المذكور، المسمى «تيسير الوصول إلى منهاج الأصول»، وهذا الشرح المختصر هو المتداول بين الناس، ويوجد منه نسخة بالخزانة التيمورية.

٢٤ ـ شرح السيد عبد الله بن محمد بن محمد، الشهير بالسيد حامد الإيجي الشافعي، المتوفى سنة ٨٩٤ هـ.

٢٥ ـ شرح العلامة عبد الوهاب بن محمد بن يحيى الشهير بابن زُهرة الشافعي الطرابلسي، المتوفى سنة ٨٩٥ هـ.

٢٦ ـ شرح الشيخ العلامة ركن الدين محمد بن أحمد بن محمد الأردبيلي الشافعي، أحد علماء القرن التاسع الهجري، تلميذ الحافظ ابن حجر.

٢٧ ـ «الإبهاج»، للعلامة الشيخ أحمد بن إسحاق الشيرازي، ألّفه للعلّامة عضد الإسلام أبي القاسم مسعود بن محمد الشهيد، وهو في مجلد متوسط الحجم بدار الكتب المصرية.

٢٨ ـ «سراج العقول»، للإمام محمد بن طاهر القزويني.

٢٩ ـ شرح الشيخ عبد الغني الأردبيلي.

٣٠ ـ شرح الإمام شمس الدين عبد الرحمن بن عطاء الله المشتهر بشيخ الأردبيلي.

٣١ ـ شرح العلامة محمد بن الحسن البدخشي الحنفي المسمى «مناهج العقول» وهو شرح دقيق، وطبع مع كتاب «نهاية السول للإسنوي» بمطبعة صبيح بمصر، عدة مرات، في ثلاثة أجزاء.

كما خرج الأحاديث الشريفة التي وردت في «المنهاج» عدد من العلماء، منهم الإمام العلامة بدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ) صاحب «البحر المحيط» في أصول الفقه، وضم إلى تخريج أحاديث «المنهاج» تخريج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» وسمى كتابه «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج

والمختصر»[1]، ومنهم الحافظ عبد الرحيم العراقي (٨٠٦ هـ)[2]، ومنهم سراج الدين عمر بن الملقن (٨٠٤ هـ) وسماه «تذكرة المحتاج في تخريج أحاديث المنهاج»[3]، ثم قام الشيخ عبد الله بن محمد الصِّدِّيق الغُمَاري بتخريجه في العصر الحاضر، وسماه «الابتهاج بتخريج أحاديث «المنهاج»، كما أشار الكَتّاني إلى «تخريج أحاديث منهاج

---

(١) أضاف المؤلف إلى ذلك: التعريف بالرجال الواقعين فيهما، وضبط الألفاظ واللغات، ويوجد من الكتاب نسخة خطية بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية، ثم حققه وعلق عليه الشيخ حمدي بن عبد المجيد السَّلفي، وطبع بالكويت في دار الأرقم للنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

(٢) طبع هذا التخريج بتحقيق الأستاذ صبحي البدري السامرائي، ونشر في العدد الثاني عام ١٣٩٩ هـ من مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي التي يصدرها مركز البحث العلمي في كلية الشريعة بجامعة أم القرى في مكة المكرمة.

(٣) توجد منه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية (انظر: «المعتبر» ص ٨)، وسماه الكَتّاني «تحفة المحتاج إلى أحاديث المنهاج» وأضاف إليه في آخره فصلاً مختصراً في ضبط ما يشكل على الفقيه الصرف من الأسماء والألفاظ واللغات. (انظر «الرسالة المستطرفة» ص ١٨٧)، لكن التبس اسم الكتاب على المرحوم الكتاني، وخلط بينه وبين كتاب آخر لابن الملقن في تخريج أحاديث «المنهاج» في الفقه للإمام النووي، الذي طبع في مجلدين، فهما كتابان لابن الملقن.

البيضاوي في الأصول» لتاج الدين السبكي، المتوفى سنة ٧٧١ هـ[1].

ونظم «المنهاج» الحافظ عبد الرحيم العراقي (٨٠٦ هـ)، والعلامة الزرعي (٧٧٦ هـ)، ويوسف العيني (٨٩٨ هـ)، وشهاب الدين الطوخي الشافعي، المعروف بابن رجب، المولود سنة ٨٤٧ هـ، وأحمد بن يوسف الكوراني (٨١٠ هـ).

جمع الزوائد على «المنهاج» جمال الدين الإسنوي (٧٧٢ هـ) صاحب الشرح السابق المشهور، والإمام برهان الدين إبراهيم الأبناسي الشافعي[2].

وفي هذا دلالات صريحة، وبراهين قاطعة على مكانة الإمام البيضاوي في أصول الفقه، وكتابه «المنهاج» الذي يحتل مكان الصدارة في هذا الخصوص، ويعكف عليه الناس، ويستفيدون منه، لفضله وبركته، ودقته وشموله.

نصوص من «منهاج الوصول»:

ونختار بعض النصوص من هذا الكتاب لمعرفة أسلوب البيضاوي رحمه الله تعالى.

---

(١) «الرسالة المستطرفة» ص ١٨٧.

(٢) انظر: «كشف الظنون» ٢/٥٥٥ وما بعدها، «إيضاح المكنون» ٢/٥٩٠، «نهاية السول» ١/يه.

يقول البيضاوي في أنواع الحكم الشرعي: (الفصل الثاني في تقسيماته، الأول: الخطاب إن اقتضى الوجودَ ومنْعَ النقيض فوجوبٌ، وإن لم يمنع فندب، وإن اقتضى التركَ ومنْعَ النقيض فحرمةٌ، وإلا فكراهة، وإن خيِّر فإباحة، ويرسم الواجب: بأنه الذي يُذَمّ شرعاً تاركه قصداً مطلقاً، ويرادفه الفرض، وقالت الحنفية: الفرض ما ثبت بقطعي، والواجب بظني، والمندوب: ما يحمد فاعله ولا يُذَمّ تاركه، ويسمى سنة ونافلة، والحرام: ما يُذمّ شرعاً فاعله، والمكروه ما يمدح تاركه، ولا يذمّ فاعله، والمباح: ما لا يتعلق بفعله وتركه مدح ولا ذم)(١).

ويقول في النسخ: (الباب الخامس في الناسخ والمنسوخ، وفيه فصلان، الأول: في النسخ، وهو: بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخٍ عنه، وقال القاضي: رفع الحكم، وردّ بأن الحادث ضد السابق، فليس رفعه بأولى من دفعه، وفيه مسائل: الأولى: أنه واقع، وأحاله اليهود، لنا: أن حكمه إن تبع المصالح فيتغيَّر بتغيّرها، وإلا فله أن يفعل كيف شاء، وأن نبوة محمد ﷺ ثبتت بالدليل القاطع، وقد نقل قوله تعالى: ﴿ ما نَنْسَخ من آية أو نُنْسِها ﴾ وأن آدم عليه السلام كان يزوج بناته من بنيه، والآن محرّم

---

(١) «منهاج الوصول» ص ٦.

اتفاقاً، قيل: الفعل الواحد لا يحسن ويقبح، قلنا: مبني على فاسد، ومع هذا فيحتمل أن يحسن لواحد أو في وقت، ويقبح لآخر أو وقت آخر)[١].

ويقول البيضاوي عن المصدر الثاني للتشريع: (الكتاب الثاني في السنّة، وهو قول الرسول ﷺ أو فعله، وقد سبق مباحث القول، والكلام الآن في الأفعال وطرق ثبوتها، وذلك في بابين، الباب الأول في الكلام في أفعاله، وفيه مسائل، الأولى: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون لا يصدر عنهم ذنب، إلا الصغائر سهواً، والتقرير مذكور في كتابي «المصباح»، الثانية: فعله المجرد يدل على الإباحة عند مالك، والندب عند الشافعي، والوجوب عند ابن سُرَيْج وأبي سعيد الإصطخري وابن خيران، وتوقف الصيرفي، وهو المختار، لاحتمالها واحتمال أن يكون من خصائصه) ثم بيَّن حجة كل قول[٢].

ويقول في المصادر المختلف فيها: (الاستصحاب حجة، خلافاً للحنفية والمتكلمين، لنا أن ما ثبت ولم يظهر زواله ظُنّ بقاؤه، ولولا ذلك لما تقررت المعجزة لتوقفها على استمرار العادة، ولم تثبت الأحكام الثابتة في عهده عليه الصلاة

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق ص ٦٩.

والسلام لجواز النسخ، ولكان الشك في الطلاق كالشك في النكاح، ولأن الباقي يستغني عن سبب أو شرط جديد، بل يكفيه دوامهما، دون الحادث، ونقل عـدمه لصـدق عدم الحادث على ما لا نهاية له فيكون راجحاً)[1].

---

(١) المرجع السابق ص ١١٠.

الفصل الثالث

البيضاوي مفسِّراً

علم التفسير من العلوم الشرعية الأساسية، لأنه يبحث عن معاني القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى للناس هداية ورحمة ونوراً، وأمرهم بتدبّره، وتفهّم معانيه، ومعرفة أحكامه، ليدركوا عظمة الله تعالى، وفضله عليهم، وحقّه عندهم، وليقوموا بما أمرهم به، ويجتنبوا عما نهاهم عنه، قال تعالى: ﴿ كتابٌ أَنْزَلناه إليكَ مبارَكٌ ليدَّبَّرُوا آياتِه، وليتذكَّرَ أولُوا الأَلْبابِ ﴾ [سورة صٓ/ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ أفلا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ؟! ﴾ [النساء/ ٦٢].

والتفسير يبحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية، بناء على أصول محدَّدة، وقواعد معيَّنة، ومقدِّمات أساسية، وعلوم ضرورية، كاللغة العربية، وأصول الفقه، وأصول الدين، وأسباب النزول، ودلالة الألفاظ حقيقةً ومجازاً وعرفاً، والجدل، وغيره.

ويهدف علم التفسير إلى تحصيل القدرة الكافية على استنباط الأحكام الشرعية بوجه صحيح، ومعرفة المنهج

الإلّهي القـويم، والتذكيـر بحق الله تعـالى على عبـاده، وإنقاذهم من شرك الضلال، وشباك الشيطان، وتغذية نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم من كلام الله تعالى، والارتواء من حوض القرآن الكريم ومعينه الذي لا ينضب، مع الاتعاظ بحكمه، والاستزادة من فضله، والأنس بجانبه، فالقرآن الكريم هو: «حبل الله المتين، ونوره المستبين، والذكر الحكيم، وهو الصـراط المستقيم، . . . لا يشبع منـه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، من علم به سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمـل به أجـر، ومن دُعي إليـه هُـدي إلى صـراط مستقيم»[1].

كما يبحث علم التفسير عن أحـوال الكتاب الكـريم، وتاريخه، من جهة سنده وتواتره، ونزوله وترتيبه، وآدابـه وألفاظه، وجمعه ونسخه، ومكيّه ومدنيّه، وسوره وتقسيمه، وحفـظه وقراءاتـه[2]، ﴿إنّا نحنُ نـزَّلْنا الـذكرَ، وإنّـا لـه لحافظون﴾ [الحجر/ ٩].

---

(١) هذا جزء من حديث رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه، ورواه الحاكم عن ابن مسعود بلفظ آخـر. (انظر: «تحفـة الأحوذي» ٢١٨/٨، «المستدرك» ١/٥٥٥).

(٢) انظر: «كشف الظنون» ١/٢٩٧، «مفتاح السعادة» ٢/٦٢، «إتمام الدراية» للسيوطي ص ٢١ على هامش مفتاح العلوم، «مقدمة في =

وبدأ تفسير القرآن العظيم منذ نزوله وحياً، وفي عهد النبوة والرسالة، وكان أول مفسر للقرآن الكريم، نظرياً وعملياً، قولاً وفعلاً، فلسفةً وتطبيقاً، هو الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي كلفه الله بهذه الوظيفة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿وأَنْزَلْنَا إليك الذِّكْرَ، لتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم، وَلَعلَّهُم يتفَكَّرُون﴾ [النحل/ ٤٤]، ودعا رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما في فهم القرآن وتفسيره، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُم فقِّهْهُ في الدين وعَلِّمْه التأويل»(١)، واستجاب الله دعاء نبيه، فكان ابن عباس رضي الله عنه حبر الأمة، وترجمان القرآن، وأعلم الصحابة بتفسيره، وشاركه جماعة من المهاجرين والأنصار، بين مُقِلّ ومكثر، ثم انتقل التفسير إلى التابعين ومن بعدهم، وشاع بين العلماء في كل عصر وزمان، وتناوله المتخصِّصون، وتناقلته الأجيال، وظهرت التفاسير الكثيرة التي تغطي الجوانب المتعددة، والعلوم المختلفة، وظهر التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير البياني في البلاغة والإعجاز، وتفسير آيات الأحكام، وتفسير مفردات القرآن، إلى أن ظهرت تفاسير الصوفية، والتفسير الإشاري،

= أصول التفسير» للإمام ابن تيمية، تحقيق الزميل الدكتور عدنان زرزور ص ٣٥ وما بعدها.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/١) وروى الشطر الأول البخاري في صحيحه (٢٨/١)، ومسلم في صحيحه (٣٧/١٥).

والتفسير العلمي وربطه بالكون[1].

وجاء صاحبنا الإمام العلامة القاضي ناصر الدين البيضاوي في القرن السابع الهجري فساهم في هذه المهمة الجليلة، وشارك في تفسير القرآن الكريم، وكانت مشاركته طيبة مباركة، كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وجاء تفسيره ناجحاً ومقبولاً، ونافعاً ومفيداً، حتى اشتهر البيضاوي بالمفسر[2]، واشتهر اسمه في عصره، وفي العصور التالية، وحتى وقتنا الحاضر، بكتابه «تفسير القرآن الكريم».

قال الخوانساري: (وقد صار هذا الكتاب منتشراً في العالم، وسبب تقرّبه عند سلطان العصر، واختصاصه بمنصب قاضي القضاة)، وقال أيضاً: (صاحب التفسير المعتمد عليه عند جمهور العلماء)[3].

«أنوار التنزيل وأسرار التأويل»:

ويعرف بتفسير البيضاوي الذي يُعتبر أشهر مصنفاته في نظر الكثيرين، وأنه حاز مرتبة السَّبْق، وتبوّأ المنزلة العليا في

(١) انظر كتاب: «التفسير والمفسرون» ١/٣٢ وما بعدها، «التفسير ورجاله» ص ٧ وما بعدها، «نموذج من الأعمال الخيرية» ص ٢٩٧.

(٢) انظر: «إيضاح المكنون» ٢/٥٦٩، «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣، «روضات الجنات» ص ٤٥٤، «الأعلام» ٤/٢٤٨.

(٣) «روضات الجنات» ص ٤٥٤.

زمانه، وتلقّاه العلماء بالقبول، واحتل المكانة الأولى في الدراسة والتدريس، لأنه كتاب نافع في موضوعه، مفيد لقارئه، عظيم في فنه، مختصر في أسلوبه، دقيق في عبارته، حوى المعاني الكثيرة، والعلوم النافعة، والحكم البليغة، والعبارات المسبوكة، والحقائق الشرعية، والبيان المشرق، وجلّى فيه الفصاحة والبلاغة وأسرار التشريع، وربطه بالمنطق، وجمع فيه بين المنقول والمعقول.

يقول الحسيني الموسوي: (وأشهر مصنفاته في زماننا هذا تفسيره)(١).

ويقول الخفاجي: (ومن مصنفاته هذا التفسير، وهو أجلّها)(٢).

ويقول العزاوي: (وصار تفسيره يدرس في المدارس العلمية، ويعدّ من كتب التفسير المعتبرة)(٣).

ويقول بروكلمان: (وأهم تصانيف البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، وهو تفسير للقرآن)، ثم يقول: (ويعتبر أهل السنة تفسير البيضاوي أحسن التفاسير جميعاً، وله في أنفسهم مكانة عظيمة)(٤).

---

(١) «نزهة الجليس» ٢/٨٧.

(٢) «حاشية الشهاب الخفاجي» ١/٤.

(٣) «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٦.

(٤) «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٨.

ويقول المرحوم محبّ الدين الخطيب: (تفسير الكتاب الكريم، المسمى: «أنوار التنزيل» الذي ذاع ذكره في سائر الأقطار، وسار مسير الشمس في رابعة النهار، وتلقّاه أعلام العلماء شرقاً وغرباً بالقبول، ووشّحوه بالشروح والحواشي الضافية الذيول، وهو أجلّ مؤلفاته)[١].

وقال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: (أصبح تفسير البيضاوي: بمحتواه، ومنهجه، وأسلوبه، أثراً ساميَ القيمة، أسدى به القاضي يداً بيضاء للباحثين والدارسين، إذ قرّب منهم المستعصي، وجمع لهم المتفرق، وضبط لهم تحرير غير المحرَّر، وسمى كتابه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»)، ثم قال: (فأحلّه الناس منذ بروزه واشتهاره، في النصف الثاني من القرن السابع، محل الاعتماد والإقبال، وعكفوا عليه عكوفهم على المرجع الأصلي للتفسير... وبذلك فإن تفسير البيضاوي، على ما يبدو عليه من اختصار، وما يتبادر لمتناوله بادىء الرأي من بساطة، قد أصبح كتاباً عميق الغور، صعب المراس، ثريّ المطاوي،... فأصبح تدريسه ميداناً للملكات الراسخة، ومجالاً لقوة العوارض، ونفوذ الأنظار، وسموّ البيان، وتتابعت العناية به لذلك: تدريساً، وتخريجاً، وتأليفاً، فزيادة على الكتب التي ترجع إليه أصالة من الحواشي، والتعليقات، التي لا تكاد تدخل تحت حصر،

---

(١) «نهاية السول» المقدمة ١/ج.

فإنه ما من مفسِّر للقرآن في القرن السابع وما بعده، إلا وتفسير البيضاوي في طليعة مراجعه)[1].

ويتحدث الشيخ ابن عاشور عن قيمة تفسير البيضاوي، ثم يقول: (حتى أصبح تدريسه منتهى مبلغ الهمم العلمية، وميزان الملكات والمواهب، فوُضع في أعلى الهيكل الهرمي لموادّ التخرّج في العلوم الإسلامية، وعمت منزلته تلك أقطار الإسلام في المشارق والمغارب، فتأصلت منزلته أولاً في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، والتزم في المناهج الدراسية ببلاد فارس وبلاد الأفغان والأقطار الهندية، ثم كان من جملة ما تسرّب من الملتزمات التعليمية من البلاد الفارسية إلى آسيا الصغرى وعموم الممالك العثمانية، واشتهر بمصر من قبل الفتح العثماني، إذ كان من الكاتبين عليه من العلماء المصريين في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر القاضي زكريا الأنصاري والإمام السيوطي، وعظم شأنه في القرن العاشر، بانتظام أهم معاهد العلم في البلاد العربية في تاج الخلافة العثمانية، وخاصة الجامع الأزهر وجامع الزيتونة، . . . فأصبح تفسير البيضاوي ملتزم التدريس من أقاصي الهند إلى المغرب الأقصى)[2].

وأجمل ما قرأته أيضاً في وصف تفسير البيضاوي ما قاله

(١) «التفسير ورجاله» ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ ـ ١٠٠.

حاجي خليفة، وأحببت أن أقتبس بعض ما قاله مختصراً، قال: (وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن، غنيّ عن البيان، كما قال مولانا المنشىء (شعراً):

أولو الألباب لم يأتوا
بكشف قناع ما يُتلى
ولكن كان للقاضي
يدٌ بيضاء لا تبلى

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار أخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان الناطقة وميزانها، فحلّ ما أشكل على الأنام، وذلّل لهم صعب المرام، وأورد فيه في المباحث الدقيقة ما يؤمَن به عن الشبهة المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة، والذي ذكره من وجوه التفاسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ «قيل»: فهو ضعيف، ضعف المرجوح، أو ضعف المردود).

ثم قال: (فمن اعترض بمثله على كلامه فكأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقنص نسر السماء، لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية على مذهب أهل السنة والجماعة).

ثم قال: (وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا

إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فنوناً من العلم، وَعِرة المسالك، وأنواعاً من القواعد مختلفة الطرائق، وقلّ من برز في فن إلا وصدّه عن سواه، وشغله، والمرء عدوّ لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستعبد نفسه في طاعة مولاه، حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل).

إلى أن قال: (ثم إن هذا الكتاب رزق عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية)[1].

أساس تفسير البيضاوي:

وأساس تفسير البيضاوي هو تفسير «الكشاف» لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) الإمام العلامة في البلاغة والعربية، والبيان وأصول الدين، لكنه معتزلي المذهب والعقيدة، وهو صاحب التصانيف البديعة، والكتب المشهورة، والآراء المتداولة، وكان قويّ الحجة، نظّاراً، يجادل أهل السنة، ويناظر أئمة الدين كالغزالي وغيره، ونال كتابه في التفسير شهرة كبيرة، واعتنى به العلماء والمحققون والمفسرون، وعكفوا عليه بالاختصار والشرح والتعليق

---

(١) «كشف الظنون» ١٦٢/١ وما بعدها، وانظر: «نموذج من الأعمال الخيرية» ص ٣٧٨.

والحواشي وبيان الأحاديث وتخريجها، وكشف مبادىء الاعتزال فيه، ومناقشتها وردّها.

قال فيه السيوطي: (ثم جاءت فرقة أصحاب نظر في علوم البلاغة التي يدرك بها وجه الإعجاز، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب)[1].

وقد وصف الزمخشري تفسيره ـ متحدثاً بنعمة الله عليه وشكره له ـ فقال:

(إن التفاسير في الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء، والكشاف كالشافي)

وجاء العلامة البيضاوي فاعتمد على تفسير الكشاف، واختصره، حتى سمي كتابه أحياناً بـ «مختصر الكشاف» وذكره كثير من علماء التراجم والتاريخ وفهارس الكتب بهذا الاسم.

قال الخوانساري: (وهو في الحقيقة تهذيب الكشاف

---

(١) «كشف الظنون» ٢/٣٠٩ وما بعدها، وانظر: «التفسير والمفسرون» ١/٤٢٩، «التفسير ورجاله» ص ٥٣، «الأعلام» ٨/٥٥، «نموذج من الأعمال الخيرية» ص ٣١٠، ٣٦٥.

وتنقيحه، واختصار ما فيه من دسائس المعتزلة، كما قيل)، إلى أن قال: (وقد يقال: إنه كتب تفسيره المعروف على نمط تفسير الكشاف المألوف، فما وجد فيه من خلل في الألفاظ أصلحه، أو من خطل في المعاني صحّحه، أو من تطويل في العبارة لخصه وخلصه)(١).

والواقع أن الإمام البيضاوي رحمه الله اعتمد اعتماداً كثيراً على تفسير الكشاف لأهميته الكبيرة، ومكانته الرفيعة، وهو ما أشار إليه في كلامه في آخر الكتاب، فقال: (التلخيص العاري عن الإخلال)، ولكن البيضاوي لم يقف عند «الكشاف»، وإنما رجع إلى كتب التفسير الأخرى، ونقل أقوال علماء التفسير وأئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، كما نص عليه في مقدمة تفسيره، وهو ما سنشير إليه في منهجه، فأخذ من كل تفسير محاسنه وفوائده، وقطف الثمار اليانعة من الجميع، وصاغ الكل بأسلوبه وعبارته، فاقتبس من «الكشاف» ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان والبديع، واعتمد عليه في بيان الألفاظ والتراكيب، وتحليل المباني لاستخراج نكت المعاني، وتجنب آراء الزمخشري

---

(١) «روضات الجنات» ص ٤٥٤، ٤٥٥، وانظر: «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣، «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/٢٨٣، «شذرات الذهب» ٥/٣٩٢، «بغية الوعاة» ٢/٥٠، «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧، «الفتح المبين» ٢/٨٨، «الأعلام» ٤/٢٤٨.

الاعتزالية[1]، بل جاء بما يرد عليها، ويفنِّد حججها، ويثبت أقوال أهل السنة، ويدعمها بالأدلة والبراهين.

واستفاد البيضاوي من «التفسير الكبير، المسمى بمفاتيح الغيب» للفخر الرازي، ونقل منه ما يتعلق بالحكمة وعلم الكلام وأصول الدين.

ورجع البيضاوي إلى تفسير الراغب الأصفهاني «مفردات القرآن» ولخص منه ما يتعلق بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات، وتحرير المعاني الذوقية.

وأضاف البيضاوي إلى ذلك ما فتح الله عليه من العلم والمعرفة، وما أتقنه من فنون الثقافة الإسلامية، والعلوم المتنوعة، وما تفتق به ذهنه من الفهم والتدبر في كتاب الله، ومزجها بمداركه الخاصة، وملكاته المتوقدة، وصاغها بأسلوبه المعهود في الدقة والاختصار، كما قال حاجي خليفة: (وضم إليه ما ورّى زناد فكره من الوجوه المعقولة، والتصرفات المقبولة، فجلا رَيْن الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة)[2].

---

(١) لم يخل تفسير البيضاوي من بعض شبه الاعتزال على الرغم من حرصه على تجنّبها والابتعاد عنها، لكنه وقع أحياناً في شباكها، وكان أحياناً أخرى يعرض مذهب أهل السنة، ومذهب المعتزلة في تفسير بعض الآيات التي لها صلة بمحل النزاع. (انظر: «التفسير والمفسرون» ١/٢٩٧، ٢٩٩).

(٢) «كشف الظنون» ١/١٦٢، وانظر: «التفسير والمفسرون» ١/٣٩٨.

ومن جهة أخرى كان تفسير البيضاوي وانتشاره في الآفاق ودور العلم عاملاً كبيراً في اشتهار تفسير الكشاف ورواجه، وسبباً في إدخاله إلى المعاهد الدراسية والبيئات العلمية، لأن العلماء احتاجوا لفهم تفسير البيضاوي للرجوع إلى «الكشاف»، وأصبحت دراسة «تفسير البيضاوي» دراسة للكشاف، واتجه الناس إلى التفسيرين معاً في الشروح والحواشي، ولم تبدأ كتابة المصنفات على الكشاف إلا في القرن الثامن وما بعده، وصارت البحوث متبادلة بين شروح البيضاوي وشروح الكشاف[١].

منهج البيضاوي في التفسير:

إن تفسير البيضاوي تفسير مختصر، ومتوسط الحجم، ويجمع بين المأثور والرأي، أو بين التفسير والتأويل، معتمداً على قواعد اللغة العربية التي يعتبر البيضاوي من فرسانها، وألّف فيها، وكان يقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة، وقد يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة، ويبيّن وجهة الخلاف، ثم يرجِّح مذهب أهل السنة، كما فعل في تفسير الآية الثالثة من سورة البقرة، فيما يطلق عليه اسم الرزق:

---

(١) انظر: «التفسير ورجاله» ص ٩٧، ٩٨، وانظر مثلاً: «الإسعاف في شرح أبيات القاضي والكشاف»، تأليف خضر بن عطاء الله الموصلي، مخطوطة في المكتبة الوطنية في طهران، رقم ٥١٣/ع.

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾. وقد يضيف إلى ذلك مذهب الخوارج مع أهل السنة والمعتزلة، وهو ما فعله في تفسير الآية الثانية والسابعة في سورة البقرة في معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، مع ترجيح مذهب أهل السنة، مستفيداً مما كتبه المفسرون قبله، وعلماء أهل السنة، وحقّقه البيضاوي نفسه في كتبه في أصول الدين[١].

وحدّد البيضاوي منهجه في مقدمة تفسيره، فقال: (أصنِّف في هذا الفنّ كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين. . .، ناوياً أن أسميه بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل»)[٢].

ويتعرض البيضاوي رحمه الله في تفسيره للصناعة النحوية دون توسعة أو استفاضة، كما يتعرض عند تفسير آيات الأحكام إلى المسائل الفقهية، ويشير إلى أقوال المذاهب والفقهاء، ويتجه غالباً إلى تأييد المذهب الشافعي وترجيح

---

(١) انظر: «التفسير والمفسرون» ١/ ٢٩٩.

(٢) «تفسير البيضاوي» ١/ ٦ على هامش «حاشية الشهاب الخفاجي»، كما يعرف هذا التفسير أيضاً بتفسير البيضاوي، وتفسير القاضي.

أقواله، مثل تفسيره «القرء» في الآية ٢٢٨ من سورة البقرة بمعناها اللغوي أنه الحيض أو الطهر، ثم رجح قول الشافعية بأنه الطهر بأدلة وقرائن خارجية.

ويعرض البيضاوي عند تفسير الآيات الكونية إلى مباحث الكون والطبيعة، متأثراً بالتفسير الكبير «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، مثل رأيه في حقيقة الشهاب الثاقب الذي جاء في الآية العاشرة من سورة الصافّات[(١)].

وكان البيضاوي رحمه الله متنبِّهاً للروايات الإسرائيلية التي تسرّبت من أهل الكتاب إلى كتب التفسير، فقلّل منها بكثرة، وإن ذكر شيئاً منها صدَّره بقوله: روي، أو قيل، إشعاراً بضعفها، وإشارةً لتضعيفها.

وكان البيضاوي يجمع أحياناً بين الأوجه المتعددة، والاحتمالات المختلفة في التفسير، ويرتِّبها بحسب الرجحان، ويشير إلى المعتمد منها، وما هو ضعيف أو مردود[(٢)].

وبدأ البيضاوي تفسيره بمقدمة عن تنزيل القرآن الكريم، ليكون معجزة لرسول الله ﷺ، فتحدّى به العرب العرباء، حتى أفحم الفصحاء والبلغاء، وأن القرآن الكريم بيَّن جميع

---

(١) انظر: «التفسير والمفسرون» ١/ ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) انظر: «التفسير ورجاله» ص ٩٢ وما بعدها.

مصالح العباد، وطلب منهم التدبر والتذكر، ثم أشاد البيضاوي بعلم التفسير، وشروطه، فقال: (إن أعظم العلوم مقداراً، وأرفعها شرفاً ومناراً علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه، والتصدي للتكلم فيه، إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها)(١).

ثم بدأ بالتفسير سورة سورة على ترتيب القرآن الكريم، المنزل من الله تعالى، والموجود في المصاحف.

وقال البيضاوي في آخر الكتاب: (وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب، المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة أعلام الأمة في تفسير القرآن، وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه، ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل». .)(٢).

ومما يؤخذ على الإمام البيضاوي في تفسيره أنه وقع فيما وقع به الزمخشري في «الكشاف»، وغيره من المفسرين، من

---

(١) «تفسير البيضاوي» ١/٤ وما بعدها، على «هامش حاشية الخفاجي».

(٢) «تفسير البيضاوي» ٥/٤٠٢، مع حاشية الكازروني.

ذكر الأحاديث في نهاية كل سورة، لبيان فضلها، والترغيب في ثواب قراءتها، وأكثر هذه الأحاديث موضوعة، وقد اعتذر عنه بعضهم في ذلك، كقول حاجي خليفة: (فإنه لكونه، لمّا صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونَحَا نَحْوَ الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبها بزور، ودلى بغرور، والله عليم بذات الصدور)[1].

وهذا اعتذار في غير محله، ولا يتفق مع مكانة البيضاوي الدينية، وثقافته العلمية والعقلية، ومعرفته في الحديث وأصول الدين والفقه، وفطنته وبصيرته بعواقب الأمور[2]، وأنه تجنب ذلك في كتابه الفقهي «الغاية القصوى» وفي كتابه في أصول الفقه «منهاج الوصول».

كما ذكر البيضاوي بعض مبادىء المعتزلة دون أن يتنبه لها، مثل تفسير ﴿ مس الشيطان ﴾ في الآية ٢٧٥ من سورة البقرة بأنه الجنون، وهو موافق لقول الزمخشري إن الجن لا تسلَّط على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء[3].

وبالجملة فإن هذه العيوب والمآخذ على تفسير البيضاوي

---

(١) «كشف الظنون» ١/١٦٣.

(٢) انظر: «التفسير والمفسرون» ١/٢٩٨، «التفسير ورجاله» ص ١٠١.

(٣) انظر: «التفسير والمفسرون» ١/٢٩٧.

لا تقلل من مكانته وأهميته، ولا تغض من فضل البيضاوي وعلمه وثوابه، فالبيضاوي ليس معصوماً، وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وكل عالم يؤخذ من قوله، ويرد عليه، إلا المصطفى المعصوم، وكفى بالمرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه، وهذا ما حصل فعلاً، فإن هذه النقاط والملاحظات لا تتجاوز في عددها عدد أصابع اليدين، ولم تقف أمام تفسير البيضاوي في الانتشار، والانتفاع به، والانكباب عليه، والاستفادة منه.

يقول السيوطي في «حاشيته» على هذا التفسير: (إن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخّص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجاد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرّر مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار، واشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكبّ عليه العلماء تدريساً ومطالعةً، وبادروا إلى تلقِّيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة)[1].

ويقول المرحوم الشيخ الذهبي: (فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغني عنها من يريد فهم كلام الله تعالى، ويقف على أسراره ومعانيه)[2].

---

(١) انظر: «التفسير والمفسرون» ١/٣٠١.

(٢) «التفسير والمفسرون»، محمد حسين الذهبي (١/٣٠٣).

طبعات «تفسير البيضاوي»:

أكبّ الناس على نشر تفسير البيضاوي منذ ظهوره، وكثرت نسخه، وانتشرت في البلاد، وتوفّرت في دور العلم والمكتبات في أنحاء العالم، واتجهت إليه الأنظار بعد ظهور المطابع، وحظي تفسير البيضاوي بالطباعة عدة مرات في كثير من المدن العربية والإسلامية، وكان ضمن المطبوعات الأولى في العصر الحديث، فطبع في بولاق مصر سنة ١٢٨٢ هـ - ١٢٨٣ هـ، وفي استنبول سنة ١٢٨٥، ١٣٠٥ هـ طبعة حجرية، ١٣٢٠، ١٣٢١، وطبع في فارس طبعة حجرية أيضاً سنة ١٢٨٣ هـ، وفي لكهنؤ بالهند سنة ١٨٦٩ م، ١٨٧٣ م، وفي بومباي ١٨٦٩ م، كما طبع في مصر سنة ١٣٣٠ هـ، وطبع في أماكن أخرى، وطبع مع شروحه وحواشيه مرات عديدة، وترجم إلى الألمانية، وطبع هناك أيضاً(١).

شروح تفسير البيضاوي وحواشيه:

اكتسب تفسير البيضاوي مكانة رفيعة منذ ظهوره حتى وقتنا

---

(١) اعتنى بهذا التفسير الدكتور فلاشر فطبعه سنة ١٨٤٤ م - ١٨٤٨ م طبعة نفيسة في مجلدين في مطبعة الايبزيغ، ثم ترجمه الدكتور فل، وطبعه في المطبعة المذكورة سنة ١٨٧٨ م. (انظر: «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٧ وما بعدها، «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/ ٤١٩).

الحاضر، وانتشر بين المسلمين شرقاً وغرباً، وتبوّأ منزلة عالية، دفعت العلماء لتناوله بالشرح والحواشي، والتعليق الكامل عليه، أو على بعض سوره، أو على خطبته فقط، وعدَّ حاجي خليفة من هذه الشروح والحواشي ما يزيد عن الأربعين، وجاء إسماعيل باشا البغدادي فعدّد حوالي السبعين، وعدَّ بروكلمان ثلاثاً وثمانين حاشية[1]، نذكر بعضها:

١ - «الحسام الماضي في إيضاح غريب القاضي»، للشيخ أبي بكر بن أحمد بن الصائغ الحنبلي، المتوفى سنة ٧١٤ هـ، شرح غريب التفسير، وضم إليه فوائد كثيرة.

٢ - شرح جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن، أبي محمد، الإسنوي، المتوفى سنة ٧٧٢ هـ.

٣ - حاشية الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني المتوفى سنة ٧٨٦ هـ.

٤ - شرح إمام الكاملية، المتوفى سنة ٨٧٤ هـ.

٥ - حاشية مصطفى بن إبراهيم، المشهور بابن التمجيد،

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ١/١٦٣ وما بعدها، «إيضاح المكنون» ١/١٣٨ وما بعدها، «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٩، وانظر: «مخطوطات المكتبة الوطنية» بطهران ١/٧٤، ١٥٨، ١٥٣، ٢٦٨، ٣٧٩، «فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية» بحلب التي نقلت إلى مكتبة الأسد بدمشق.

المتوفى حوالي سنة ٨٨٠ هـ، وهو معلم السلطان محمد خان الفاتح، وطبعت هذه الحاشية باستنبول سنة ١٨٢٧ م في سبع مجلدات.

٦ ـ حاشية جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هـ، وسماها «نواهد الأبكار، وشواهد الأفكار».

٧ ـ حاشية الشيخ جمال الدين إسحاق القراماني، المتوفى سنة ٩٣٣ هـ، وهي حاشية مفيدة جامعة.

٨ ـ حاشية العالم الفاضل أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب، المشهور بالكازروني، المتوفى في حدود سنة ٩٤٠ هـ، وهي حاشية لطيفة، أورد فيها من الحقائق والدقائق ما لا يحصى، وطبعت هذه الحاشية على هامش تفسير البيضاوي بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٣٠ هـ، في خمس مجلدات، وصورت حديثاً في بيروت ـ مؤسسة شعبان.

٩ ـ حاشية العالم الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى القونوي، المتوفى سنة ٩٥١ هـ، وهي أعظم الحواشي فائدة، وأكثرها نفعاً، وأسهلها عبارة، كتبها أولاً على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدىء في ثماني مجلدات، ثم استأنفها ثانياً بنوع تصرف وزيادة، وطبعت هذه الحاشية باستنبول سنة ١٢٨٣ هـ في أربع مجلدات.

١٠ ـ حاشية العالم عبد الحكيم السيالكوتي، المتوفى عقب

سنة ١٠٦٠ هـ، وهو من لاهور عاصمة البنجاب في الباكستان، والحاشية مشهورة بالتحقيق والتحليل، وصواب النظر، ورشاقة العبارة، والإغراق في الإشارة، حتى اعتبرت عنقاء الدارسين، وآبدة الناظرين، كما يقول الشيخ ابن عاشور(١)، وطبعت هذه الحاشية في استنبول سنة ١٢٧١ هـ.

١١ ـ حاشية شهاب الدين الخفاجي، المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ، وهو العلامة المصري الأزهري، وسماها «عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي» طبعت ببولاق مصر سنة ١٢٨٢ هـ في ثمانية مجلدات، وهي مصورة حديثاً بالمكتبة الإسلامية في ديار بكر بتركيا، وهي حاشية تامة، بخلاف حاشية عبد الحكيم، كما أنها حاشية واسعة، كثيرة المباحث والفوائد، وخرج الأحاديث وعلق عليها(٢).

١٢ ـ حاشية على تفسير البيضاوي للشيخ عبد الرحمن المحلي، الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧ م(٣).

١٣ ـ حاشية على البيضاوي للسفرجلاني عبد الرحمن بن

---

(١) «التفسير ورجاله» ص ١٠٠.

(٢) انظر: «التفسير ورجاله» ص ١٠١.

(٣) انظر: «الأعلام» ٤/ ٩٨.

عمر بن إبراهيم، الشافعي المفسر، المتوفى سنة ١١٥٠ هـ /١٧٣٧ م[١].

١٤ ـ حاشية إسماعيل بن محمد القونوي، المتوفى سنة ١١٩٥ هـ، المطبوعة على هامش حاشية ابن التمجيد السابقة.

تخريج أحاديث تفسير البيضاوي:

١ ـ تخريج أحاديث تفسير البيضاوي، تأليف الحافظ عبد الرؤوف المناوي، المتوفى سنة ١٠٣١ هـ، وسماه «الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي»[٢].

٢ ـ «تحفة الراوي في تخريج أحاديث البيضاوي»، تأليف محمد هِمَّات زادة، المتوفى سنة ١١٧٥ هـ، مخطوطة، يوجد منها نسختان، الأولى في مكتبة ولي الدين في استنبول رقم ٥١١، والأخرى في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة[٣].

ومن هذا العرض يظهر مكانة القاضي البيضاوي المفسر،

---

(١) انظر: «الأعلام» ٤/٩٣.

(٢) انظر: «الرسالة المستطرفة» ص ١٨٦، «التفسير ورجاله» ص ١٠١.

(٣) انظر: «ارسالة المستطرفة» ص ١٨٦، تخريج أحاديث مختصر المنهاج، للحافظ العراقي، تحقيق السامرائي ص ٢٨٦ من مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، العدد الثاني.

ومكانة كتابه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في أروقة العلم، ودور المطابع، وبين يدي الطلاب والدارسين، ليبقى ذكر البيضاوي يلهج على الألسنة، ويتردد في مجالس العلماء، وهم يدعون له بالأجر والثواب.

نصوص من تفسير البيضاوي:

يقول القاضي البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، ولتنظُرْ نفسٌ ما قدَّمَتْ لغد، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [سورة الحشر/١٨]، يقول: (﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظُرْ نفسٌ ما قدَّمَتْ لغد ﴾ ليوم القيامة، سماه به لدنوّه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرة كغده، وتنكيره للتعظيم، وأما تنكير النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك. ﴿ واتقوا الله ﴾ تكرير للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات، لأنه مقرون بالعمل، والثاني في ترك المحارم، لاقترانه بقوله: ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي)(١).

ويقول البيضاوي في تفسير سورة العصر:

(﴿ والعصر ﴾ أقسم الله سبحانه بصلاة العصر لفضلها، أو بعصر النبوة، أو بالدهر، لاشتماله على الأعاجيب،

---

(١) «تفسير البيضاوي مع حاشية الكازروني» ٥/١٢٧.

والتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران. ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ إن الناس لفي خسران في مساعيهم، وصرف أعمارهم في مطالبهم، والتعريف للجنس، والتنكير للتعظيم. ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، ففازوا بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية. ﴿ وتواصَوْا بالحق ﴾ الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل. ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ عن المعاصي أو على الحق، أو على ما يبلو الله به عباده، وهذا من عطف الخاص على العام للمبالغة، إلا أن يخص العمل بما يكون مقصوراً على كماله، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود، وإشعاراً بأن ما عدا ما عدّ يؤدي إلى خسر ونقص، حظاً وتكرّماً، فإن الإبهام في جانب الخسر كرم، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة العصر، غفر الله له، وكان ممن تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»)[1].

---

(١) «تفسير البيضاوي مع حاشية الكازروني» ٥/١٩٤.

الفصل الرابع
البيضاوي وعلم أصول الدين

يتبوّأ بحث العقيدة منزلة رفيعة في الدين، وخصها العلماء في صدر الإسلام بعنوان «الإيمان» وما يتفرع عنه، وشاعت دراسة الإيمان والعقيدة في العصر العباسي، واحتل مركزاً كبيراً، ونشأت فيه المذاهب والفرق، وكانت تهدف إلى بيان أركان الإيمان وفروع العقيدة، ودحض العقائد الباطلة، والأديان المحرّفة، وكشف الشبهات، والردّ على المخالفين من أصحاب الملل والنحل الأخرى، والفلسفات المتعددة، وأمام التيارات الفكرية الوافدة، والهجمات العدائية الغازية للبلاد الإسلامية عن طريق ترجمة الكتب القديمة، وأتباع الديانات الوثنية.

وعرف هذا العلم في الاصطلاح الإسلامي، وعند أهل السنة بعلم أصول الدين، لأنه يبحث في أهم أركان الدين، وأعظم مبادئه، وأول أهدافه وغاياته، وهو الإيمان بالله تعالى[1].

---

(١) عرف السيوطي علم أصول الدين فقال: (علم يُبحث فيه عما يجب اعتقاده). «إتمام الدراية» ص ٤.

كما عرف بعلم التوحيد لأنه يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله، والتوحيد إفراد الله تعالى بالخلق ذاتاً وصفة وفعلاً، وليس لغيره تأثير ما مطلقاً، والهدف توحيد الله تعالى بالألوهية والربوبية، وهو أول دعوة الرسل.

كما عرف هـذا العلم بعلم الكلام، لأنـه يعتمد على الحجج المنطقية، والأدلة العقلية، ويستخدم فيـه أسلوب المناظرة والمجادلة مع الخصوم والمخالفين، ويعتمد على المنطق والعقل والفلسفة، لذا عرفه ابن خلدون فقال: (علم الكلام: هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)[1].

وصار علم أصول الدين، أو علم الكلام، من أهم العلوم الدينية، وظهرت فيه المذاهب المختلفة، كمذهب السلف، ومذهب الماتريدية، ومذهب الأشعرية، والمعتزلة، وغيرها، وظهرت فيه المصنفات الكثيرة، والكتب العديدة، ووقف الأئمة والعلماء من أهل السنة والجماعة ـ الـذين يمثلون مذهب السلف والماتـريديـة والأشعريـة ـ في وجه أعـداء الإسلام، يدافعون عن العقيدة والإيمان، ويبيِّنون أصـول

(١) «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٥٨، وانظر: «مفتاح السعادة» ٢/ ١٥٠، «نمـوذج من الأعمـال الخيـريـة» ص ١٠٦، «كشف الـظنـون» ٢/ ٣٢٦.

الـدين، مستخـدمين ـ في الغـالب ـ مبـادىء المنـطق، ومصطلحات الفلاسفة.

وشارك الإمام البيضاوي في هذا العلم بالتأليف والمناظرة والتدريس، وكان متقناً لعلم أصول الدين، ومتضلعاً بعلم الكلام، وكان إسهامه مباركاً وطيباً ونافعاً، حتى قال ابن السبكي في أحد كتب البيضاوي في علم أصول الدين: (وأما «الطوالع» فهو عندي أجل مختصر في علم الكلام)[1].

كتب البيضاوي في علم أصول الدين:

صنف القـاضي البيضاوي عـدة كتب في علم أصـول الدين[2]، وهي:

١ ـ «طوالع الأنوار»، وهو أهم كتاب للبيضاوي في هذا الخصوص، وذكره معظم المترجمين للبيضاوي.

٢ ـ «مصباح الأرواح»، اختصر فيه البيضاوي كتابه «طوالع الأنوار»، ورتبه على مقدمة وثلاثة كتب كأصله، وشرحه القاضي عبيد الله العبيدلي[3].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧.

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧، ١٠/٣٨٣، «مفتاح السعـادة» ٢/١٠٥، ١٧٩، «كشف الظنـون» ٢/١٠١، «هديـة العـارفين» ١/٤٦٣، «شذرات الـذهب» ٥/٣٩٢، «نموذج من الأعمال الخيرية» ص ٢٧٨، «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٩.

(٣) انظر: «كشف الظنون» ٢/٤٤٦. وذكر البيضاوي نفسه كتـاب المصباح عدة مرات، انظر: «منهاج الوصول» ص ١٣، ٦٩.

٣ ـ «الإيضاح في أصول الدين»، ولعله شرح على كتاب «المصباح»[(١)].

٤ ـ «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى»، ذكره البيضاوي في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في أواخر سورة الحشر[(٢)].

وأهم كتاب شاع وانتشر في أصول الدين للبيضاوي هو الكتاب الأول، وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا، لذلك نفرده بالشرح.

«طوالع الأنوار»:

وهو كتاب دقيق للغاية في أصول الدين، وقال حاجي خليفة: (وهو متن متين، اعتنى العلماء بشأنه)[(٣)]، وذكرنا كلمة ابن السبكي فيه: (وأما الطوالع فهو عندي أجل مختصر في علم الكلام)[(٤)].

وقال المرحوم محب الدين الخطيب: (وله كتاب «طوالع الأنوار» وهو من الكتب التي اعتنى العلماء بشرحه وتقييده،

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/٤٤٦.

(٢) انظر: «كشف الظنون» ٢/٥٤٢.

(٣) «كشف الظنون» ٢/١٠٢.

(٤) «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧.

ووضع الحواشي عليه، وتدريسه في أغلب البلاد الإسلامية)[1].

ويقول شمس الدين الأصفهاني: (غير أن كتاب «طوالع الأنوار» من مصنفات الإمام المحقق، العلاّمة، قاضي القضاة، وحاكم الحكام، قدوة المحققين، أسوة المدققين، أفضل المتأخرين، ناصر الملة والدين، إمام الإسلام والمسلمين، عبد الله البيضاوي قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، اختص من بينها باشتماله على عقائل المعقول، ونخب المنقول، قد نقح أصوله، وخرج فصوله، ولخص قوانينه، وحقق براهينه، وحل مشكله، وأبان مفصله)[2].

منهج «الطوالع» وخطته:

بدأ البيضاوي كتابه بالحمد والثناء على الله تعالى، والصلاة والسلام على نبيه ﷺ، ثم بيّن أهمية علم أصول الدين، فقال: (وبعد: فإن أعظم العلوم موضوعاً، وأقومها أصولاً وفروعاً، وأقواها حجةً ودليلاً، وأجلاها محجة وسبيلاً، هو العلم الكافل بإبراز أسرار اللاهوت عن أسرار الجبروت، المطلع على مشاهدات الملك، ومغيبات الملكوت، الفاروق بين المنتخبين للرسالة والهدى، والمنطبعين على الضلالة

(١) «نموذج من الأعمال الخيرية» ص ٢٧٨.
(٢) «مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار» ص ٣.

والردى، الكاشف عن أحوال السعداء والأشقياء في دار البقاء، يوم العدل والقضاء، مبنى قواعد الشرع وأساسها، ورئيس معالم الدين ورأسها)[١].

ثم بيّن القاضي البيضاوي منهجه فقال: (هذا، وإن كتابنا يشتمل على عقائل المعقول، ونخب المنقول، في تنقيح أصوله، وتخريج فصوله، وتلخيص قوانينه، وتحقيق براهينه، وحل مشكلاته، وإبانة معضلاته، وهو مع وجازة لفظه، وسهولة حفظه، يحتوي على معان كثيرة الشعوب، متدانية الجنوب، مسومة المبادىء والمطالع، مقومة العوالي والمقاطع، وسميته «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار»)[٢].

وحدد البيضاوي خطة الكتاب، فقال: (وبعد، فمقصود الكتاب يشتمل على مقدمة وثلاثة كتب)[٣].

أما المقدمة ففي النظر، وفيها أربعة فصول في المبادىء كالتصور والتصديق، والنظر والفكر، والمعرف والقول الشارح، والحجة والدليل، وفي الأقوال الشارحة، وفي الحجج، ثم في أحكام النظر[٤].

---

(١) «مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار» ص ٥.
(٢) المرجع السابق ص ٦.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق ص ٦ ـ ٣٥.

والكتاب الأول في الممكنات، وفيه ثلاثة أبواب.

الباب الأول في الأمور الكلية، وفيه ستة فصول في تقسيم المعلومات، والوجود والعدم، والماهية، والوجوب والإمكان، والقدم والحدوث، والوحدة والكثرة، والعلة والمعلول، وكان يقسم الفصل الواحد إلى عدة مباحث[١].

والباب الثاني في الأعراض، وفيه أربعة فصول، في المباحث الكلية، ومباحث الكم، والكيف، والأعراض، وقسم كل فصل إلى عدة مباحث[٢].

والباب الثالث في الجواهر، وفيه فصلان، في مباحث الأجسام، وفي المفارقات، وكل فصل عرضه في عدة مباحث[٣].

والكتاب الثاني في الإلهيات، وفيه ثلاثة أبواب[٤].

الباب الأول في ذات الله تعالى، وفيه ثلاثة فصول: في العلم به، وفي التنزيهات، وفي التوحيد، وكل فصل يحتوي عدّة مباحث[٥].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥ ـ ٧١.
(٢) المرجع السابق ص ٧١ ـ ١٠٨.
(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ ـ ١٥١.
(٤) «مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار» ص ١٥١.
(٥) المرجع السابق ص ١٥١ ـ ١٦٦.

الباب الثاني في صفاته تعالى، وفيه فصلان: في الصفات التي تتوقف عليها أفعاله تعالى كالقدرة والعلم والحياة والإرادة، وفي سائر الصفات كالسمع والبصر، والكلام والبقاء...، وكل فصل في مباحث(1).

الباب الثالث في أفعاله تعالى، وفيه مسائل، منها أن أفعال العباد كلها واقعة بقدرة الله تعالى مخلوقة له، وأنه تعالى مريد للكائنات، والتحسين والتقبيح، وأنه لا يجب على الله تعالى شيء، وأن أفعاله تعالى لا تتعلل بالأغراض(2).

والكتاب الثالث في النبوة، وفيه ثلاثة أبواب.

الباب الأول في النبوة واحتياج الإنسان إليها، وإمكان المعجزات، ونبوة سيدنا محمد ﷺ، وعصمة الأنبياء، وتفضيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الملائكة، والكرامات، وذلك في ستة مباحث(3).

الباب الثاني في الحشر والجزاء، وفيه ثمانية مباحث، في إعادة المعدوم، وحشر الأجساد، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والعفو والشفاعة لأهل الكبائر، وإثبات عذاب

---

(1) المرجع السابق ص ١٦٦ ـ ١٨٩.

(2) المرجع السابق ص ١٨٩ ـ ١٩٨.

(3) المرجع السابق ص ١٩٨ ـ ٢١٤.

القبر، وسائر السمعيات من الصراط والميزان، والأسماء الشرعية[1].

الباب الثالث في الإمامة، وفيه خمسة مباحث، في وجوب نصب الإمام، وصفات الأئمة، وفيما تحصل به الإمامة، وإقامة الدليل على أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه، وفضل الصحابة[2].

وختم الكتاب بمبحث فضل الصحابة، وقال في آخره: (نفعنا الله بمحبتهم أجمعين، وجعلنا الله لهديهم متبعين، وعصمنا الله عن زيغ الضالين، وبعثنا يوم الدين في أعداد الهادين بفضله العظيم، وفيضه العميم، إنه سميع قريب مجيب)[3].

وقد عددنا عناوين الكتب والأبواب والفصول وبعض المباحث والمسائل لنعطي صورة عن موضوعات علم أصول الدين التي استوعبها الإمام البيضاوي في كتابه، ويفرد بعض الأحكام المهمة بعنوان «فرع» (ص ٤٣، ٥٣، ٦٣، ٨٩، ١٧٠، ١٨٣، ٢١٩)، و«فرعان» (ص ١٧٤)، و«فروع» (ص ٣١، ٤٩، ٦٧).

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٤ ـ ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٣٨.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٩.

ويستخدم القاضي البيضاوي طريقة المتكلمين في تقرير المبادىء والأحكام والاستدلال لها، والاحتجاج عليها، ويورد الاعتراض، ثم يجاوب عنه (مثلاً ص ١٤ ـ ١٥)، ويذكر آراء الفرق المخالفة ويناقشها (ص ٢٨ ـ ٣٣)، ويعرض آراء أهل السنة، ويبيّن حجة كل منهم، ويناقشها، ويخص رأي الإمام أبي الحسن الأشعري بقوله: «الشيخ» (ص ٣٩)، وينقل آراء الغزالي، ويصفه بحجة الإسلام (ص ١٤٠).

ويعتمد الإمام البيضاوي في كتابه وأسلوبه وعرضه على علم المنطق في قواعده وحدوده واصطلاحاته، كما يستخدم المصطلحات الفلسفية، ويحدد ماهيتها، ويظهر ذلك من عناوين الأبواب والفصول السابقة.

ويمتاز الكتاب بحسن الترتيب والتبويب، مع الدقة في التعبير، والتركيز على المدلولات، والاستيعاب لمصطلحات علم الكلام.

شروح «طوالع الأنوار»:

نظراً لأهمية هذا الكتاب، وإحاطته بالموضوع، فقد تناوله العلماء والطلاب في الدراسة والتدريس، ثم كتبوا عليه الشروح والحواشي(١)، نذكر بعضها:

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/١٠٢، «دائرة المعارف الإسلامية» ٩/٣٣ ط. الشعب، «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٧٥.

١ - شرح عبد الصمد بن محمود الفارابي، المتوفى سنة ٧٠٧ هـ، وهو شرحٍ بسيط.
٢ - شرح بدر الدين التُستري، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ.
٣ - شرح القاضي عبيد الله بن محمد الشريف الفرغاني، المعروف بالعِبري، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ.
٤ - شرح شمس الدين الإصفراني، المتوفى سنة ٧٥٩ هـ.
٥ - شرح محيي الدين محمد، المعروف بطبل الباز، المتوفى سنة ٩٠٦ هـ.
٦ - شرح القاضي زكريا بن محمد الأنصاري، المتوفى سنة ٩٢٦ هـ، وهو شرح مفيد.
٧ - شرح المولى عصام الدين إبراهيم بن محمد الإسفرايني، المتوفى سنة ٩٤٣ هـ.
٨ - شرح «مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار»، للعلامة محمود بن عبد الرحمن، شمس الدين الأصفهاني، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، وهم شرح نافع ومتداول، وأهم الشروح. ولذلك أخرنا ذكره، وقد كتب كثير من العلماء، التعليقات والحواشي على شرح الأصفهاني، أهمها حاشية العلامة الشريف الجرجاني (٨١٦ هـ).

وطبع شرح الأصفهاني مع أصله «طوالع الأنوار» وحواشي الجرجاني عليه باستنبول عام ١٣٠٥ هـ، ثم طبع شرح الأصفهاني بالمطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ، وتقع في ٢٣٩ صفحة من القطع الكبير، والفهرس في أربع

صفحات، وفي آخرها طبعت حواشي العلامة الجرجاني في ٣٧ صفحة، وكانت هذه الحواشي مطبوعة بهامش نسخة الآستانة باستنبول، كما طبعت بمفردها في استنبول سنة ١٣٠٥ هـ.

نصوص من «طوالع الأنوار»:

وهذه نماذج من هذا الكتاب تدل على الدقة والإحكام.

يقول البيضاوي في مسألة الحسن والقبح، وهل هما عقليان أم شرعيان؟: (الثالثة في التحسين والتقبيح: لا قبيح بالنسبة إلى ذات الله تعالى، فإنه مالك الأمور على الإطلاق، يفعل ما يشاء ويختار، لا علة لصنعه، ولا غاية لفعله، وأما بالنسبة إلينا فالقبيح ما نُهي عنه شرعاً، والحسن ما ليس كذلك، وقالت المعتزلة: القبيح قبيح في نفسه، وقبحه يكون لذاته أو لصفة قائمة به، فيقبُح من الله كما يقبح منا، وكذلك الحسن، ثم إن منهما ما يستبد العقل بدَرْكه ضرورة كإنقاذ الغرقى والهلكى وقبح الظلم، أو استدلالاً كقبح الصدق الضارّ، وحسن الكذب النافع، ولذلك يحكم بهما المتدين وغيره كالبراهمة، ومنها ما ليس كذلك كحسن صوم آخر رمضان، وقبح يوم أول شوال، قلنا: المراد بالحسن والقبح إن كان ما يكون صفة كمال كعلم، أو نقص كجهل، أو يكون ملائماً للطبع أو منافراً له، فلا خلاف في كونهما عقليين، وإن كان ما يتعلق به في الآجل ثواب أو عقاب، فالعقل

لا مجال له فيه، كيف وقد بان أن العبد غير مختار في فعله، ولا مستبدّ في تحصيله؟!)[1].

ويقول البيضاوي في حاجة البشر للأنبياء: (الكتاب الثالث في النبوة وما يتعلق بها، وفيه ثلاثة أبواب: الأول في النبوة، وفيه مباحث، الأول: في احتياج الإنسان إلى النبي: لما لم يكن الإنسان بحيث يستقل بأمر نفسه، وكان أمر معاشه لا يتم إلا بمشاركة آخر من أبناء جنسه، ومعاوضه، ومعاونه، ويجري بينهما فيما يعنّ لهما بما يتوقف عليه صلاح الشخص أو النوع، احتاج إلى عدل، يحفظه شرع، يفرضه شارع، يختص بآيات ظاهرة، ومعجزات باهرة، تدعو إلى طاعته، وتحث على إجابته، وتصدق في مقالته، يُوعِد المسيءَ بالعقاب، ويَعِد المطيع بالثواب، وهو النبي عليه السلام).

(وقالت البراهمة: كل ما حسنه العقل فمقبول، وما قبحه فمردود، وما يتوقف فيه فمستحسن عند الحاجة إليه، مستقبح عند الاستغناء عنه، فإذن في العقل مندوحة عن النبي ﷺ، قلنا: لبعثة الرسل فوائد لا تحصى، منها أن يقرر الحجة، ويميط الشبهة، ويرشد إلى ما يتوقف العقل فيه، كبعث الأموات، وأحوال الجنة والنار، ومنها أن يبيِّن حُسْن ما يتوقف العقل فيه، ويفصل ما حسّنه إجمالاً، ومنها أن يعين وظائف الطاعات والعبادات المذكرة للمعبود المتكررة لاستحفاظ

---

(١) «طوالع الأنوار مع مطالع الأنظار» ص ١٩٥.

التذكر وغيرها، ومنها أن يشرع قواعد العدل، المقيم لحياة النوع، ويعلم الصناعات الضرورية النافعة المكمِّلة لأمر المعاش، ومنها أن يعلم منافع الأدوية ومضارها وخصائص الكواكب وأحوالها التي لا يحصل العلم بها إلا بتجربة متطاولة لا تفي بها الأعمار، وأيضاً فالعقول متفاوتة، والكامل نادر، فلا بد من معلِّم يعلِّمهم ويرشدهم على وجه يناسب عقولهم)[(١)].

ويقول البيضاوي عن حكم إقامة الدولة وتعيين الخليفة: (الباب الثالث في الإمامة، وفيه مباحث: الأول في وجوب نصب الإمام، أوجبه الإمامية والإسماعيلية علي الله تعالى، والمعتزلة والزيدية علينا عقلاً، وأصحابنا سمعاً، ولم يوجب الخوارج مطلقاً، لنا مقامان: بيان وجوبه علينا سمعاً، وعدم وجوبه على الله تعالى، أما الأول فلأن نصب الإمام لدفع ضرر لا يندفع إلا به، لأن البلد إذا خلا عن رئيس قاهر، يأمر بالطاعات، وينهى عن المعاصي، ويدرأ بأس الظلمة عن المستضعفين، استحوذ عليهم الشيطان، وفشا فيهم الفسوق والعصيان، وشاع الهرج والمرج، ودفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان واجب بإجماع الأنبياء واتفاق العقلاء، فإن قيل: يحتمل مفاسد أيضاً، إذ ربما يستنكف الناس عن

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٨، ٢٠٧، وانظر: «منهاج الوصول» ص ٦، ١٣.

طاعته، فيزداد الفساد، أو يستولي عليهم فيظلمهم، أو يحتاج لدفع المعـارض وتقوية الرياسـة إلى مزيد مال، فيغصب منهم، قلنا: احتمالات مرجوحة مكثورة، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير، وأما الثاني: فَلِما بيّنا أنه لا يجب عليه شيء بل هو الموجب لكل شيء).

(واحتجت الإمامية بأنه لطف، لأنه إذا كان إمام كان حال المكلف إلى قبول الطاعات، والاحتراز عن المعاصي أقرب مما إذا لم يوجد، واللطف على الله واجب، قياساً على التمكن، والجواب بعد تسليم المقدمات الباطلة أن اللطف الذي ذكرتموه إنما يحصل بوجود إمام قاهر، يرجى ثوابه، ويخشى عذابه، وأنتم لا توجبونه، كيف ولم يتمكن من عهد النبوة إلى أيامنا إمام على إمام وصفتموه؟!)[1].

---

(١) «مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار» ص ٢٢٨، ٢٢٩.

الفصل الخامس
البيضاوي مؤرخًا

علم التاريخ هو معرفة الأمم والطوائف والشعوب، ومعرفة بلدانهم ورسومهم، وعاداتهم وصنائعهم، وأشخاصهم وأنسابهم، ووفياتهم، وما يقع بينهم في حالتي السلم والحرب، وبه نتعرف على أحوال الأشخاص السابقين، كالأنبياء والعلماء والحكماء والملوك والأدباء والشعراء وغيرهم، لنستفيد من تجاربهم، ونعتبر بأحوالهم، ونطلع على شؤونهم، فنأخذ المفيد، ونطرح السيىء، فالعاقل من اتعظ بغيره، واستفاد من تجارب السابقين عليه، وربط الماضي بالحاضر، ليبني عليهما المستقبل الرشيد، والحياة سلسلة متصلة، ودائرة متكاملة، من ابتداء البشرية إلى نهايتها[1].

والكتب المصنفة في التاريخ كثيرة جداً، ولا تخلو منها أمة، وهي في تراثنا وافرة وعديدة، وفيها المجلدات الكبيرة،

(١) انظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٣، ٩، «كشف الظنون» ١/٢١٢، «مفتاح السعادة» ١/٢٥١.

والمصنفات الشاملة، والموسوعات الواسعة، العامة أو الخاصة، كتاريخ الطبري (٣١٠ هـ)، وتاريخ ابن الأثير (٦٣٠ هـ)، وتاريخ ابن كثير (٧٧٤ هـ)، وغيرها.

وشارك القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى في هذا العلم بأسلوبه الخاص المختصر، فكتب تاريخ العالم باللغة الفارسية، وسماه «نظام التواريخ» ابتدأ به من عهد آدم عليه السلام حتى سنة ٦٧٤ هـ /١٢٧٥ م[١]، ويظهر أن الإمام البيضاوي كان يزيد عليه من الوقائع حتى سنة وفاته ٦٨٥ هـ /١٢٨٦ م[٢].

وتناول الإمام البيضاوي في هذا الكتاب تاريخ الأنبياء والخلفاء، وذكر الخلافة الإسلامية، وعرض الخلافة الأموية ثم العباسية، ثم تحدث عن تاريخ الدول الصفارية والسامانية والغزنوية والديالمة والسلجوقية والسلفكية والخوارزمية والمغولية، وما يتعلق بتاريخ جميع الدول الفارسية.

---

(١) انظر: «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٦ وما بعدها، «كشف الظنون» ٢/٦٠٤، «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٩، «الفتح المبين» ٢/٨٨، «روضات الجنات» ص ٤٥٥، «الأعلام» ٤/٢٤٨، «نهاية السول» ١/د.

(٢) ولذلك يرى روبسون وغيره أن «نظام التواريخ» يتناول تاريخ العالم حتى هذه السنة. (انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩/٣٤ ط. الشعب).

وأهم جانب في تاريخ البيضاوي ما كتبه عن المغول الذين نشأ في عهد زحفهم وتقدّمهم على الشرق الإسلامي، وتكاملت ثقافته في أيام استيلائهم على البلاد الإسلامية، وكانت له مكانة محترمة في بلاده في رمانهم، وتجوّل في إيران، ووقف على الحالة العامة في أيامهم، فهو شاهد عيان لحوادثهم، وعرض أشهر وقائعهم، فكتب ما رأى، دون أن ينقل عن غيره ما جرى.

وكتاب «نظام التواريخ» مختصر جداً، حتى يصبح أحياناً مخلاً بالحوادث في اختصاره، ويمتاز بوضعه سلسلة الملوك والأمراء، والكتاب - كما وصفه العزاوي - «متن في التاريخ»، وكتبه البيضاوي بنزاهة قلم، ولسان أديب معتدل، شأنه في ذلك شأن أسلوبه في الفقه والأصول، ولذلك قال العزاوي عنه: (ولم يعرف أنه مؤرخ، وإنما هو قاضٍ وفقيه شافعي، وما كان يَظُنّ امرؤ أن الاضطراب في العالم الإسلامي يؤرخ عنه فقيه أصولي، ومفسّر ديني)[1].

واحتاط الإمام البيضاوي من بطش المغول، فلم يتعرَّض لسياستهم، وإنما اكتفى بعرض الوقائع التاريخية.

وتأثر بتاريخ البيضاوي كثيرون، ونال كتابه العناية التامة، فترجم إلى العربية والتركية، ويوجد منه نسخ كثيرة في

(١) «التعريف بالمؤرخين» ص ١١٦.

أوروبـا، وفي استنبول، وقـد نشره سيـد منصور بـاللغـة الفارسية، مع تعليقات باللغة الهندية، وطبع في حيدر آباد سنة ١٩٣٠ م.

واكتسب كتاب «نظام التواريخ» المكانة والحـظوة التي وقعت لسائر كتب البيضاوي، وانتشرت في الأقطار، حتى طبع كتاب في «تاريخ العالم» لرشيد الدين في هامبورج بألمانيا، ونُسب خطأً للبيضاوي[١].

---

(١) انظر: «دائرة المعارف الإسلامية» ٤/٤١٩، مقال بروكلمان.

الفصل السادس

البيضاوي وعلم النحو

النحو أحد العلوم العربية، وعرّفه السيوطي بأنه: علم يبحث فيه عن أواخر الكلم، إعراباً وبناءً[1].

وقال السكّاكي: (إن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكَلِم، لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية)[2].

وإن النصوص الشرعية وردت باللغة العربية، وعلى مقتضى قواعدها وأساليبها، وفي أعلى درجة من بلاغتها وفصاحتها، وأدت وظيفتها وبيَّنت أحكامها بدلالات اللغة العربية، فالقرآن الكريم دستور المسلمين، وكلام رب العالمين، والمصدر الأول للهداية والإيمان والعقيدة والأخلاق

---

(١) «النقاية» ص ٢٣٣ على هامش مفتاح العلوم.

(٢) «مفتاح العلوم» ص ٤١، وانظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٥٤٦، «مفتاح السعادة» ١/١٤٤، «كشف الظنون» ٢/٥٨٩.

والعبادة والتشريع، نزل بلسان عربي مبين، وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة بلغة عربية صائبة، لذلك أصبحت العلوم العربية أساسية وضرورية في معرفة الأحكام الشرعية، وتفسير القرآن الكريم والسنة النبوية، فاهتم العلماء بالعلوم العربية، وكانوا يبدؤون بدراستها، ويقرنونها بالعلوم الشرعية، ويتبحّرون بها، ويتخصّصون بفروعها، ويمارسون التأليف والتدريس فيها، ونص علماء أصول الفقه أن معرفة العربية وعلومها أحد شروط الاجتهاد والاستنباط، وقرر ذلك علماء التفسير وأن العلم بالعربية أحد أركان التفسير ومقوماته، وكذا شرح الحديث.

وكان لعلماء الإسلام وأئمته فضل كبير في خدمة العربية، والتأليف فيها، وكانوا يتباركون بدراستها، لأنها خدمة وقربى للقرآن الكريم، وتدبّر آياته، وفهم معانيه ومقاصده، ومن هنا برز أعلام كبار في علوم العربية، وأكثرهم من غير العرب، حباً في لغة القرآن الكريم، والنبي العربي.

يقول الشيخ ابن عاشور عن هذا المعنى: (لعل ذلك المثل السائر الذي فاضت به الحكمة الفطرية: «رُبّ أخ لك لم تلِدْه أمُّك» لم ينطبق يوماً على متآخيَيْن متناصرين، على بعد الأواصر، وتباين العناصر، كما انطبق على ما بين اللغة العربية ذاتها، وبين حبيبها وربيبها: فخر «خوارزم» جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، فلقد نشأ متيَّماً

بالعربية، متفانياً فيها، منقطعاً لروايتها، وتحقيقها وخدمة علومها، مفضلاً لها، مناصراً لخصائصها ومعارفها، ومحارباً للمستنقصين قدرها من الشعوبيين، معتزاً بما نال من المعرفة بها، وشرف به من الانتساب إليها، ولقد افتنّ في تآليفه العجيبة بالتنويه بالعربية وفضلها، وعجيب أمرها، وبارع محلها. . .، ولقد أبدع الزمخشري في العربية، علماً، وذوقاً، وروايةً، وإنشاءً، فخلّف ثروة عظيمة في الأوضاع العربية)[1].

وشارك الإمام البيضاوي في هذا المجال، فدرس العربية، وأتقن علومها، وحاز قصب السبق فيها، ومَخَر عُبابها، وأدرك أسرارها، ومارس الكتابة فيها بمختلف العلوم، وكانت كتبه قطعاً أدبية رفيعة، وسليمة ومحكمة، وفسر القرآن العربي وكشف معانيه، وأجاد صياغة بقية العلوم باختصار وإسهاب، ثم خصص علم النحو بالتأليف والتصنيف، فكان نحوياً فذاً، وعالماً بارعاً، وله يد طُولى، وباع واسع، وأدب جمّ، واتخذ من «الكافية» لابن الحاجب[2] محوراً لتآليفه، وكتب كتابين في النحو، هما:

---

(١) «التفسير ورجاله» ص ٥٣.

(٢) وهو الشيخ عثمان بن عمر، جمال الدين، أبو عمرو، المعروف بابن الحاجب، فقيه مالكي، أصولي، من كبار العلماء بالعربية، كردي الأصل، وكتابه «الكافية» مختصر ومشهور، ونظمه ابن =

١ ـ «لب الألباب في علم الإعراب»، وهو مختصر الكافية لابن الحاجب، وينطوي هذا المختصر على فوائد جليلة، وتكفل فيه البيضاوي بذكر غرائب النحو، مع وجازة اللفظ، واستدرك فيه أشياء تركها ابن الحاجب[١].

ويوجد من هذا الكتاب نسختان بدار الكتب المصرية بالقاهرة، الأولى برقم ٦٤٠ نحو، تيمور، والثانية برقم ٣٦٤، نحو[٢].

واهتم العلماء بكتاب «لب الألباب» وشرحه عدد منهم، فشرحه المولى محمد بن بير علي، المعروف ببيركلي، المتوفى سنة ٩٨١ هـ، وكتابه معروف بـ «امتحان الأذكياء».

كما شرحه بايزيد بن عبد الغفار، القونوي، باسم «مدرج الفوائد لما ألحق به من الزوائد» وفيه ردود واعتراضات على الشارح البيركلي.

وشرحه أيضاً محمد بن علي الكونياتي الهندي،

= الحاجب نفسه، وشرحه كثيرون. (انظر: «وفيات الأعيان» ٢/ ٤١٣، «الأعلام» ٤/ ٣٧٤، «كشف الظنون» ٢/ ٢٤٩، «الفتح المبين» ٢/ ٦٥)، توفي ابن الحاجب سنة ٦٤٦ هـ.

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/ ٢٥١، ٣٥٣.

(٢) انظر: «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/ ٨٢.

المتوفى سنة ٩٤١ هـ، وسماه «خلاصة الكتب»[١].

٢ ـ «شرح الكافية» لابن الحاجب:

ذكر كثير من العلماء هذا الشرح للبيضاوي، لكن لم يبق له أثر فيما نعلم[٢].

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/٣٥٣.

(٢) انظر: «كشف الظنون» ١/٢٥١، «مفتاح السعادة» ٢/١٠٥، «هدية العارفين» ١/٤٦٣، «روضات الجنات» ص ٤٥٥، «بغية الوعاة» ٢/٥١، «طبقات المفسرين» ١/٢٤٣، «الوافي بالوفيات» ١٧/٣٧٩.

الفصل السابع

البَيْضَاويّ وَبَقيَّة العُلوم

كان البيضاوي رحمه الله تعالى ذا ثقافة واسعة، وكانت ثقافته متعددة الجوانب، واسعة الأفق، ولم يقتصر على العلوم الشرعية الأساسية التي سبقت كالفقه والتفسير، وأصول الفقه وأصول الدين، والتاريخ والنحو، بل تناول علوماً أخرى شرعية ولغوية، لأن العلوم متداخلة مع بعضها، وتمت بصلات جذرية لبعضها من جهة أخرى، ولأن الشرع والدين يدعو لتعلم جميع العلوم والاستفادة منها، ويمكن للعالم والمفكر أن يستفيد من كل علم لدينه ودنياه، وفي حياته وآخرته، ولنفسه ولمجتمعه، وهذا ما دفع القاضي البيضاوي للمشاركة في بقية العلوم التي سنشير إليها باختصار من خلال المصنفات والكتب التي دوّنها البيضاوي، وذكرها كتّاب التراجم والتاريخ في ترجمته، وهي:

أولاً ـ علم الحديث:

وهو أحد العلوم الشرعية المهمة التي تتعلق بالسنة النبوية

كمصدر ثان في الشريعة، وخاصة ما يتعلق بأحاديث الأحكام كأدلة للفقه.

وكتب القاضي البيضاوي في علم الحديث شرحاً مهماً بعنوان «تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنة» للإمام حسين ابن مسعود الفراء البغوي الشافعي (٥١٦ هـ).

وكتاب البغوي «مصابيح السنة» مشهور ومعروف، جمع فيه المؤلف ما يقرب من (٤١٨٩) حديثاً، واعتنى به العلماء بالقراءة والرواية والشرح والتعليق.

ومن ذلك شرح القاضي البيضاوي، وهذا يدل على تبحّر البيضاوي في الحديث وعلومه، كما أن كتابه في الفقه «الغاية القصوى» يدل أيضاً على إتقان البيضاوي لعلم الحديث، ومعرفته به، فقد أورد فيه ما يزيد عن (٦٦٠) حديثاً من أحاديث الأحكام.

ويوجد من شرح البيضاوي «تحفة الأبرار» ست نسخ مخطوطة في القاهرة، واستنبول، والموصل، والباكستان.

ثانياً ـ علم المنطق:

وهو مجموعة قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في

---

(١) انظر: «كشف الظنون» ٢/٤٤٢، «إيضاح المكنون» ٢/٤٩٠، «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/١٥٧، «تاريخ الأدب العربي» بروكلمان ٦/٢٣٦، ٢٤٠.

الحدود المعرِّفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات[1]، ويسمى أيضاً علم الميزان، ويهدف إلى عصمة الذهن عن الخطأ، وحفظ الفكر عن الشطط، وصَوْن العقل من السفسطة والغلط، وهو من العلوم العقلية التي شاعت وانتشرت في العصر العباسي، وكثرت فيه المؤلفات، وحمل لواءه فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) ومن بعده القاضي أفضل الدين محمد بن نامـاور الخُوَنجي (٦٤٩ هـ) في كتـابه «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار»[2].

ودرس الإمام البيضاوي علم المنطق في صغره، واستخدم قواعده ومبادئه في كتبه ومؤلفاته، ثم صنف فيه كتاب «شرح المطالع».

وأصل الكتاب «مطالع الأنـوار في الحكمة والمنـطق» للقاضي سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي (٦٨٢ هـ) وهو كتاب اعتنى به الفضلاء، واهتموا بالبحث فيه ودراسته وتدريسه وشرحه والتعليق عليه، ومن هذه الشـروح شرح القاضي البيضاوي الذي كان معاصراً لصاحبه[3].

---

(١) انظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٨٩، «كشف الظنون» ٢/٥٤٤، «مفتاح السعادة» ١/٢٩٥.

(٢) انظر: «كشف الظنون» ٢/٣١٦، «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٩٢.

(٣) انظر: «كشف الظنون» ٢/٤٥٣، «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/٣٧١، «الوافي بالوفيات» ١٧/٣٧٩، «روضات الجنات» =

ثالثاً ـ علم الفلك والهيئة:

وهو علم يعرف منه أحوال الأجرام البسيطة، العلوية والسفلية، وأشكالها، وأوضاعها، ومقاديرها، وأبعادها، وحركات الكواكب، وهو علم قديم، واهتم به المسلمون، وكتبوا فيه، وطوّروه[1].

ودرس البيضاوي هذا العلم، ثم ألف فيه كتابين: الأول مختصر في الهيئة، والثاني «شرح الفصول» لنصير الدين الطوسي (٦٧٢ هـ)، وكان الطوسي معاصراً للبيضاوي، وكان علامة بالأرصاد وعلم الفلك والهيئة، وكان مقرَّباً عند هولاكو، ومسموع الكلمة، واستعان به، وعيَّن الطوسي منجمين لرصد الكواكب، وكان كتابه مشهوراً ومتداولاً، فشرحه البيضاوي[2].

رابعاً ـ علم التصوف والأخلاق:

يقول ابن خلدون: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله... العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما

= ص ٤٥٥، «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٨٥، «مفتاح السعادة» ١/٢٩٧.

(١) انظر: «مفتاح السعادة» ١/٣٧٢، «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٨٧.

(٢) انظر: «الأعلام» ٧/٢٥٧، «حاشية الشهاب الخفاجي» ١/٤، «روضات الجنات» ص ٤٥٥، «هدية العارفين» ١/٤٦٣.

يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة)[1]، ثم صار علماً مستقلاً له اصطلاحاته ودعاته وقواعده وطرقه ومذاهبه، وتسرَّب إليه بعض التصوف الهندي، والمبادىء الغريبة، والأفكار الدخيلة، وصنف فيه كبار العلماء من التابعين ومن بعدهم، وبعض المصنفات صافية وسليمة من الدخيل، وبعضها اختلط فيها الحق بالباطل.

وذكر المرحوم محب الدين الخطيب أن القاضي البيضاوي كتب في هذا العلم رسالة في «التهذيب والأخلاق»[2].

خامساً ـ موضوعات العلوم:

وأخيراً فقد كتب الإمام البيضاوي رسالة في «موضوعات العلوم وتعريفها»، تتضمّن علم الأدب وفروعه، وعلم النواميس وفروعه، والعلم الطبيعي وفروعه، وعلم الهندسة، وعلم الموسيقى، وعلم الأخلاق، وعلم الحساب[3].

---

(١) «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٦٧، وانظر: «إتمام الدراية» للسيوطي ص ١٩٢ على هامش مفتاح العلوم.

(٢) «نهاية السول» المقدمة ١/د.

(٣) انظر: «هدية العارفين» ١/٤٦٣، «الأعلام» ٤/٢٤٨، «روضات الجنات» ص ٤٥٥، «نهاية السول» ١/د.

وتوجد نسخة من هذه الرسالة في دار الكتب المصرية، ضمن =

وهـذا يدل على الثقـافة الـواسعة، والـدقة في وضـع التعريفات، وتنقيحها، وتصحيحها، وهو اتجاه يسلكه كثير من العلماء، وألف فيه كبار المؤلفين، مثل الإمام السكاكي، سراج الملة والدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ، في كتابه «مفتاح العلوم»، والإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هـ، في كتابيه «النقاية» و«إتمام الدراية لقـراء النقاية»، وهذه الكتب الثلاثة مطبوعة معاً، ثم صوِّرت حديثاً. وقريب منها كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» تأليف أحمد بن مصطفى، الشهير بطاش كبري زاده، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء بدار الكتب الحديثة بالقاهرة، وكتاب «مفاتيح العلوم» للإمام الأديب أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (٣٨٧ هـ)، مطبوع بمطبعة بريل بليدن سنة ١٨٩٥ م، وفي القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م.

= مجموعة برقم ٣٨٤ مجاميع. (انظر: «الغاية القصوى» ـ المقدمة ١/٨٦).

الخاتمة

وبعد هذا العرض لحياة الإمام القاضي ناصر الدين البيضاوي تظهر لنا الصورة المشرقة، والآثار الخالدة، والإنتاج الطيب المبارك، والكتب النافعة، والمصنفات المشهورة.

ونلخص ما سبق بما يلي:

١ - إن الإنسان يتأثر بالبيئة التي يعيش بها، والثقافة المتوفرة في زمانه، والأحداث السياسية والاجتماعية التي تعاصره، والأفكار الدينية والمذهبية، والحضارة المادية، والاتجاهات العقائدية التي تحيط به، فتفرض ذاتها عليه أحياناً، وتصبغه بألوانها، وتغطيه بدثارها، وقد تدفعه للوقوف في وجهها وتضطره لمناهضتها، وكشف سوآتها، وتعرية عيوبها، وإظهار نواقصها، ليكون الشخص مؤثراً وفاعلاً فيما يجري حوله.

ولم يشذ القاضي البيضاوي عن هذه القاعدة، فتأثر بعصره، وبيئته، من الناحيتين الإيجابية والسلبية، فتأثر

بالثقافة الإسلامية الناشطة التي كانت تعج في القرن السابع الهجري، وكانت تسود البلاد الإسلامية، والخلافة العباسية، وبلاد فارس خاصة، فتربّى البيضاوي على أيدي العلماء الفطاحل في مختلف العلوم الشرعية والعقلية والأدبية،واستفاد من هذه العلوم، وحصل فيها الكثير الطيب، وتزوّد فيها بالملكة الناصعة، والعقل النيّر، والشخصية الفذة، وبدأ بالعطاء، ليرد الدَّيْن الذي في عنقه إلى البشرية.

٢ ـ إن الظروف السيئة التي عاصرت القاضي البيضاوي حجبت عنا أخباره التفصيلية، وترجمته الكاملة، فأغفلت كتب التاريخ والتراجم ولادته ونشأته وتربيته، مع أنه وُلد في بيت علم وفضل، وكان والده قاضياً في الممالك، كما كان جده قاضياً، وهو ما أخبر به البيضاوي في مقدمة كتبه، كما أسدلت الستار على مشايخه وأساتذته، وسكتت عن أسماء طلابه وتلامذته، ولم تبين لنا المدارس التي تعلم فيها، والمعاهد التي درَّس فيها.

٣ ـ بقي لنا من حياة البيضاوي الشخصية ـ بشكل صحيح ـ اسمه ونسبه ولقبه وكنيته، وتاريخ وفاته، ومكان دفنه.

٤ ـ كما حفظ لنا التاريخ أهم صفة في حياة البيضاوي، وهي القضاء، ولقب القاضي، فإنه تولى القضاء

ليحكم بالعدل، ويلتزم بالشرع، ويقول الحق لا تأخذه في الله لومة لائم.

٥ ـ جاءت كارثة المغول الذين شدّدوا قبضتهم على فارس وغيرها، لاختيار الرجال، وتمييز المعادن، وصهر الأمة لربطها بركاب الاحتلال، وتسخير الطاقات لمصالح الطغاة، وإغلال الأعناق، فكان البيضاوي شديد المراس، قوي الشكيمة، لم تلن قناته، ولم يرض بالرق المعنوي، وتحفّظ لنفسه ودينه، واعتزل المناصب كلها، وتفرغ للعلم والتأليف والتدريس، ليجدد فعاليته وتأثيره، ويفتح باباً جديداً للنور، وثغرة خلفية أمام الأجيال، ويقيم معولاً في ظهر المعتدي الغاشم، ويفتح مدرسة لتخريج الأبطال، ومنهلاً لارتواء العلوم الصافية، والثقافة النقية التي تحفظ الأمة وتخلدها.

٦ ـ ولئن ضنّت علينا المصادر بالأضواء الكاشفة عن تفاصيل حياة البيضاوي الشخصية، فإن مآثره العلمية عوّضت خيراً من ذلك، وبقيت شامخة، وكتب المصنفات العظيمة التي شاعت في عصره، وانتشرت في جميع الأمصار، وكانت نوراً وضياءً للبشرية في كل زمان ومكان، وخلّدت ذكره، لأن قيمة الإنسان بما يُتقن، وكل امرىءٍ يُقَدَّر بكسبه وعمله.

وإن آثار البيضاوي العلمية،وتَرِكته القيّمة، ومصنفاته النافعة، وكتبه المتداولة المشهورة، تعطي صورة وضّاءة للإمام البيضاوي، وتعوض ما أغفله التاريخ عن حياته الشخصية وأخباره الخاصة.

وإن حياة البيضاوي العلمية لا تزال تتلألأ في دنيا العرب والإسلام، وتحتل مركز الصدارة في كل مكان، وتتردّد على ألسنة العلماء وطلاب العلم.

٧ ـ **فالبيضاوي هو المفسر المشهور بين علماء التفسير**، وتأتي هذه الصفة والشهادة في الدرجة الأولى مع كتابه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» أو «تفسير البيضاوي» للقرآن العظيم، وقدَّم البيضاوي كتابه إلى سلطان عصره، فاستحسنه وأعجب به، وقرَّبه، وطلب منه أن يقضي له حوائجه إزاء هذا العمل السديد، فقال البيضاوي: (أريد قضاء البيضاء)، فحقق له مطلبه، وعينه قاضياً، وتقرر هذا التفسير في معاهد التدريس من الهند حتى المغرب الأقصى.

٨ ـ **والبيضاوي هو الأصولي** في الدرجة الثانية مع كتابه «منهاج الوصول إلى علم الأصول» في أصول الفقه، وعليه يدور هذا العلم منذ سبعة قرون.

٩ ـ **والبيضاوي هو العالم بأصول الدين** في الدرجة الثالثة،

مع كتابه «طوالع الأنوار» الذي يعتبر أجلّ مختصر في علم الكلام.

١٠ ـ **والبيضاوي هو الفقيه** في الدرجة الرابعة، مع كتابه «الغاية القصوى في دراية الفتوى» المحكم البديع، وكان البيضاوي الفقيه يحتل الدرجة الأولى في حياته العملية بالفتوى والقضاء والتدريس، ولكنه لم يستمرّ في هذه المكانة لأسباب كثيرة، منها فَقْد كتابه الكبير في الفقه «شرح التنبيه».

١١ ـ **والبيضاوي هو المؤرّخ** في الدرجة الخامسة، ولكنها درجة تلفت النظر أن يقوم المفسر والأصولي والفقيه والنظار والمتكلم بتدوين التاريخ في كتاب دقيق متين «نظام التواريخ».

١٢ ـ **والبيضاوي هو الأديب والعالم بالنحو** في أسلوبه ومؤلفاته عامة، وكتب النحو خاصة.

١٣ ـ **والبيضاوي هو الرجل الموسوعي** في مختلف علوم الحديث والمنطق والهيئة والتصوف وغيرها مما تناوله في كتبه ومصنفاته.

وهنا نكرر ما بدأنا به هذا الكتاب عن البيضاوي المشهور المغمور، وأن ما ضاع من أخباره الشخصية أمر بسيط، لا يقدِّم، ولا يؤثر في شيء، وأن الباقي من آثاره أهم

بكثير مما ضاع، وأن الجانب العلمي المشرق، والكتب النافعة، خلّدت ذكره، ليبقى على الألسنة يتردّد في أروقة العلم، وعلى مقاعد المدارس والجامعات حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ويتحقق فيه حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

قال الإمام النووي: (وفيه بيان فضيلة العلم، والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه، بالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع)(٢).

وقد صنف القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه، واختار من العلوم أنفعها، وترك فيها أنفس المؤلفات، ليبقى اسمه خالداً، وثوابه ثابتاً ومستمراً إن شاء الله تعالى في صحائفه.

رحم الله البيضاوي رحمة واسعة، وجزاه الله خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين، وأكرم مثوبته، وأنزل عليه شآبيب

---

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة (١١/٨٥ كتاب الوصية، باب ما يلحق من الثواب للميت بعد وفاته).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١١/٨٥.

رحمته، ونفعنا بعلمه، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، وجمعنا وإياه في مستقر رحمته، تحت لواء سيدنا محمد ﷺ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمّد الزحيلي

المصادر والمراجع

١ - «الإبهاج في شرح المنهاج»، تقيّ الدين السبكي، وتاج الدين السبكي، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

٢ - «إتمام الدراية لقرّاء النقاية»، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ) مطبوع على هامش مفتاح العلوم.

٣ - «أدب القضاء»: «الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات»، للقاضي ابن أبي الدم الحموي (٦٤٢ هـ)، طبع دار الفكر، دمشق - ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م، تحقيق الدكتور محمد الزحيلي.

٤ - «أصول الفقه الإسلامي»، للدكتور محمد الزحيلي، مطابع مؤسسة الوحدة بدمشق - ١٤٠١ هـ /١٩٨١ م، الطبعة ٢.

٥ - «أصول المحاكمات الشرعية والمدنية»، للدكتور محمد الزحيلي، مطابع مؤسسة الوحدة بدمشق - ١٤٠١ هـ /١٩٨١ م.

٦ - «الأعلام»، خير الدين الزِّرِكْلِي - الطبعة الثالثة - بدون تاريخ.

٧ - «الإمام الجُوَيْني»، للدكتور محمد الزحيلي، دار القلم بدمشق - ١٤٠٦ هـ /١٩٨٦ م.

٨ - «الإمام الشيرازي»، للدكتور محمد حسن هيتو، دار الفكر بدمشق - ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
٩ - «الأنساب»، للسمعاني، الطبعة الثانية، نشر محمد أمين دمج، بيروت - ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
١٠ - «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون»، للعالم إسماعيل باشا البغدادي، طبع وكالة المعارف - ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧ م.
١١ - «البداية والنهاية»، للحافظ أبي الفداء ابن كثير الدمشقي، تصوير عن الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ م.
١٢ - «البدر الطالع»، محمد علي الشَّوْكاني، مطبعة السعادة بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ.
١٣ - «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، جلال الدين السيوطي، طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة - ١٩٦٤ م.
١٣ مكرر - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، دار المعارف، القاهرة - ١٩٧٧ م.
١٤ - «تاريخ الأمم الإسلامية»، للشيخ محمد الخُضَري، الطبعة الرابعة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة - ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م.
١٥ - «التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان»، للمحامي عباس العزاوي، طبع شركة التجارة، بغداد - ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م.
١٦ - «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي»، للإمام محمد عبد الرحمن المباركفوري (١٣٥٣ هـ)، مطبعة المدني

بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ /١٩٦٣ م.
١٧ ـ «تفسير البيضاوي»، مطبوع على هامش حاشية الشهاب الخفاجي مع حاشية الكازروني.
١٨ ـ «التفسير ورجاله»، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، سلسلة البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة ـ ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.
١٩ ـ «التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي، وتطبيقه في المملكة العربية السعودية»، للدكتور محمد الزحيلي، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
٢٠ ـ «تهذيب الأسماء واللغات»، للعلامة أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي (٦٧٦ هـ)، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت ـ عن الطبعة المنيرية.
٢١ ـ «حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي»، تصوير المكتبة الإسلامية ـ ديار بكر ـ تركيا.
٢٢ ـ «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»، للحافظ جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) طبع عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ـ ١٣٨٧ هـ /١٩٦٨ م.
٢٣ ـ «دائرة المعارف الإسلامية»، مجموعة مستشرقين، منهم بروكلمان وربسون ـ طبع طهران + طبع دار الشعب بمصر.
٢٤ ـ «الدرر الكامنة»، للعلامة أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة المدني، القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ/ ١٩٦٧ م.
٢٥ ـ «الدليل الشافي على المنهل الصافي»، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨٧٤ هـ)، تحقيق فهيم

شلتوت، نشر مركز البحث العلمي بكلية الشريعة بمكة المكرمة ـ ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

٢٦ ـ «ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي»، للحافظ أبي المحاسن الحسيني الدمشقي، تصوير دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٧ ـ «الرسالة المستطرفة»، للعلامة السيد الشريف محمد بن جعفر الكَتّاني (١٣٤٥ هـ)، دار الفكر بدمشق، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م.

٢٨ ـ «روضات الجنات»، الخوانساري ـ طبع حجر ١٣٠٧ هـ.

٢٩ ـ «سنن أبي داود»، سليمان بن الأشعث (٢٧٥ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م.

٣٠ ـ «السنن الكبرى»، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ)، الطبعة الأولى، حيدرآباد الدكن بالهند ـ ١٣٤٦ هـ.

٣١ ـ «سنن ابن ماجه»، محمد بن يزيد القزويني (٢٧٣ هـ)، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ـ ١٣٧٢ هـ /١٩٥٢ م.

٣٢ ـ «شذرات الذهب»، عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، طبع القدسي، القاهرة ـ سنة ١٣٥٠ هـ.

٣٣ ـ «شرح الكوكب المنير»، للعلامة محمد بن أحمد الفَتّوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار (٩٧٢ هـ)، تحقيق الدكتور محمد الزحيلي والدكتور نزيه حماد، نشر مركز البحث العلمي بكلية الشريعة بمكة المكرمة ـ، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

٣٤ ـ «صحيح البخاري»، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦ هـ)، المطبعة العثمانية بمصر ـ طبعة أولى.
٣٥ ـ «صحيح مسلم بشرح النووي»، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، المطبعة المصرية، القاهرة ـ طبعة أولى.
٣٦ ـ «طبقات الشافعية»، جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، تحقيق الجبّوري، مطبعة الإرشاد، بغداد ـ ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.
٣٧ ـ «طبقات الشافعية الكبرى»، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٧١ هـ)، طبع عيسى الحلبي، القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطَّنَاحي.
٣٨ ـ «طبقات المفسرين»، محمد بن علي الداودي، تحقيق علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال، القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.
٣٩ ـ «الغاية القصوى في دراية الفتوى»، للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق علي محيي الدين علي القره داغي ـ طبع دار النصر للطباعة الإسلامية بمصر ـ ١٩٨٢ م.
٤٠ ـ «الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الصغير»، وهما للجلال السيوطي، جمع يوسف النبهاني (١٣٥٠ هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.
٤١ ـ «الفتح المبين في طبقات الأصوليين»، للشيخ عبد الله

مصطفى المراغي، الطبعة الثانية، بيروت ـ ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

٤٢ ـ «الفوائد المكية»، السيد علوي بن أحمد السقاف، طبع مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ـ بدون تاريخ.

٤٣ ـ «فوات الوفيات»، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (٧٦٤ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع مكتبة النهضة المصرية.

٤٤ ـ «فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت»، محمد بن نظام الدين الأنصاري (١١٨٠ هـ) مطبوع مع المستصفى، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر ـ ١٣٢٢ هـ.

٤٥ ـ «القضاء في الإسلام»، للأستاذ محمد سلام مدكور، نشر دار النهضة العربية، القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ /١٩٦٤ م.

٤٦ ـ «الكامل في التاريخ»، للعلامة عز الدين علي بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، تصوير دار صادر، بيروت ـ ١٣٩٩ هـ /١٩٧٩ م.

٤٧ ـ «كشف الظنون»، مصطفى بن عبد الله، الشهير بحاجي خليفة، الطبعة الأولى، نظارة المعارف، استنبول ـ ١٣١٠ هـ.

٤٨ ـ «المحصول في علم أصول الفقه»، فخر الدين الرازي، تحقيق الدكتور طه العلواني، الطبعة الأولى، الرياض ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٤٩ ـ «المجموع شرح المهذب»، للإمام محيي الدين بن شرف النووي (٦٧٦ هـ)، مطبعة الإمام بمصر ـ نشر زكريا يوسف.

٥٠ ـ «مرآة الجنان»، عبد الله بن أسعد اليافعي، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن ـ سنة ١٣٣٩ هـ.
٥١ ـ «مراصد الاطّلاع»، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (٧٣٩ هـ)، طبع دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٥٢ ـ «المستدرك على الصحيحين»، لأبي عبد الله الحاكم (٤٠٥ هـ)، تصوير طبعة حيدر آباد بالهند.
٥٣ ـ «مسند الإمام أحمد بن حنبل»، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت ـ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.
٥٤ ـ «مطالع الأنظار في شرح مطالع الأنوار»، للعلامة شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني (٧٤٩ هـ)، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية بمصر ـ ١٣٢٣ هـ.
٥٥ ـ «معجم المؤلفين»، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي بدمشق ـ ١٣٧٧ هـ /١٩٥٨ م.
٥٦ ـ «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر»، بدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ)، طبع دار الأرقم ـ الكويت.
٥٧ ـ «مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج»، محمد الشربيني الخطيب (٩٩٧ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ـ ١٣٧٧ هـ /١٩٥٨ م.
٥٨ ـ «مفتاح السعادة»، أحمد بن مصطفى، الشهير بطاش كبري زادة، مطبعة الاستقلال الكبرى ـ القاهرة.
٥٩ ـ «مفتاح العلوم»، للإمام يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (٦٢٦ هـ)، الطبعة الأولى، القاهرة ـ ١٣١٧ هـ.

٦٠ ـ «مقدمة ابن خلدون»، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨ هـ)، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
٦١ ـ «مقدمة في أصول التفسير»، للعلامة تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨ هـ)، تحقيق الدكتور عدنان زرزور، طبع دار القرآن الكريم، الطبعة الأولى ـ ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.
٦٢ ـ «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول»، للقاضي البيضاوي، ضبطه وحققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٥١ م.
٦٣ ـ «نزهة الجليس»، العباس بن علي المكي الحسيني الموسوي، طبع مصر ـ ١٢٩٣ هـ.
٦٤ ـ «نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي»، مجموعة شارحين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ـ ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م.
٦٥ ـ «النقاية»، جلال الدين السيوطي، مطبوعة على هامش مفتاح العلوم.
٦٦ ـ «نموذج من الأعمال الخيرية»، للشيخ محمد منير عبده آغا الدمشقي، المطبعة المنيرية، القاهرة ـ ١٣٤٩ هـ.
٦٧ ـ «نهاية السول في شرح منهاج الوصول»، عبد الرحيم الإسنوي، المطبعة السلفية، القاهرة ـ ١٣٤٥ هـ.
٦٨ ـ «هدية العارفين»، إسماعيل باشا البغدادي، طبع استنبول ـ سنة ١٩٥١ م.
٦٩ ـ «الوافي بالوفيات»، خليل بن أيبك الصفدي، طبع دار

الأندلس، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م.

٧٠ ـ وأخيراً مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي يصدرها مركز البحث العلمي والتراث الإسلامي في كلية الشريعة بجامعة أم القرى ـ في مكة المكرمة.

فهرس